إحسان عبد القدوس

فوق الحلال والحرام

الطبعة 2

قصص

الدار المصرية اللبنانية

إحسان عبد القدوس

فوق الحلال والحرام

قصص

الدار المصرية اللبنانية

فوق الحلال والحرام

جلس الأستاذ عبد الرحمن في غرفة الاستقبال ببيت الآنسة صفاء.. وهو هادئ وقور يتلاعب بأصابعه في حبات مسبحة طويلة ويمسح بيده الأخرى على شعر لحية صغيرة أنيقة مهذبة أطلقها لتكسو ذقنه، وتضفي عليه مهابة تتعدى سن شبابه الذي لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره.. وكان قد جاء تلبية لدعوة وجهتها إليه صفاء، وإن كانت قد قالت له إنهما لن يكونا وحدهما.. ورفضت أن تحدد له من سيكون معهما.. وقالت ضاحكة كعادتها إنها ستكون مفاجأة.. ولا شك أن هذه المفاجأة ستكون بلقاء أخيها أو ابن عمها.. لقاء عائليا رسميا حتى يتقدم بطلب زواجها..

وصفاء لم تدخل إليه حتى الآن رغم أنه قد مرت عشر دقائق على وصوله.. ربما كانت في انتظار هذا الآخر الذي سيشاركهما اللقاء..

وفجأة دخل عليه هاني عبد الرؤوف يتمختر كأنه يقفز بخطواته.. وهو يرتدي قميصا مفتوحا عن صدره وبنطلونا ضيقا، كأنه ملتصق بلحمه يبرز كل اهتزازاته كأنه يرقص به.. وهو مظهر لا يليق بسنه.. فهو في السابعة أو الثامنة والعشرين على الأكثر!..

واتسعت عينا عبد الرحمن دهشة ثم لوى شفتيه احتقارا وقرفا!..

وصاح هاني:

- أهو أنت؟

إنه هو الآخر جاء على موعد مع صفاء.. وقد قالت له أيضا إنهما لن يكونا وحدهما.. وكان يتصور أنه سيكون معهما بعض أفراد العائلة حتى يطلبها رسميا للزواج.. ولم يخطر على باله أبدا أن الذي سيكون معهما هو عبد الرحمن..

وكلاهما -أي عبد الرحمن وهاني- يعلمان أن كلا منهما صديق صفاء.. وكل منهما يفسر هذه الصداقة ويحددها وفقا لخياله وتقديراته الخاصة.. وإن كان عبد الرحمن مصمما منذ البداية على أنه لو تزوج صفاء فسيقطع صداقتها لهاني قطعا باترا.. بينما هاني لا يشغل باله بصداقة صفاء لعبد الرحمن.. إنه واثق في نفسه إلى حد الغرور.. ولا يساوي عبد الرحمن أو أي رجل آخر ما يمكن أن يؤثر على ارتباط صفاء به..

وأدار كل منهما ظهره للآخر.. وعبد الرحمن جالس يحرك أصابعه بين حبات المسبحة في سرعة وعصبية، كأنه يقذف بكل حبة في وجه هاني.. بينما هاني جالس يدمدم بنغمات لحن أجنبي راقص..

إلى أن دخلت عليهما صفاء.. ونظرت إليهما في دهشة وهما جالسان وظهر كل منهما للآخر كأنهما في خصام عنيف.. ثم ضحكت ضحكة عالية كعادتها.. وقالت في مرح:

- أهلا وسهلا بالجنة والنار..

وقام كل منهما يصافحها صامتا وهو يتعمد ألا ينظر إلى الآخر..

وجلست صفاء في مواجهة الاثنين.. وبدأت بالكلام كأنها متأكدة أن أحدهما لن يبدأ به.. وقالت:

- إن المفاجأة التي تعمدت أن أفاجئكما بها هي أن نجتمع نحن الثلاثة في لقاء واحد.. فأنتما الاثنان مسئولان عني وعن كل حياتي.. وقد أصبحت أعاني حيرة تستبد بي وتؤرقني وأحس كأنها تمزقني.. ولن ينتشلني من هذه الحيرة إلا من هما مسئولان عني.. أي أنتما الاثنان..

وصاح عبد الرحمن:

- إني لا يمكن أن أتحمل مسئولية يشاركني فيها هذا الإنسان.. وإني أرحب بل أفخر وأتشبث بمسئوليتي عنك، ولكني لا يمكن أن أترك أي إنسان يتحمل معي مسئوليتك..

وصاح هاني ساخرا:

- كيف تريدين أن تجمعي بين الجنة والنار في مسئولية واحدة.. وأنا أعيش الجنة وهو قطعا يعيش النار؟!..

وعاد عبد الرحمن يصيح كأنه يبصق في وجه هاني:

- إنه لن يكون من نصيبك أن تحاسب يوم القيامة، وستلقى في النار مباشرة؛ لأن بلاويك أقذر وأوضح من أن تحتاج إلى حساب. والمخلوق لا يعيش الجنة أو النار

على سطح الدنيا، ولكنه ينتظر ما سيحكم به الله عليه في الآخرة..

وقال هاني وهو يلوي شفتيه احتقارا لعبد الرحمن:

- إن الله فرض الجنة والنار على الدنيا والآخرة.. ولأني أتمتع برضاء الله فإني أعيش جنة الدنيا في انتظار جنة الآخرة.. أما أنت.. فإنك لا تعتقد أن الله راض عنك.. وتخاف نار الآخرة.. ويبلغ بك خوفك إلى أن تلقي بنفسك في نار الدنيا.. نار الحرمان من متعة الحياة التي أجاد الله بها على مخلوقاته..

وقال عبد الرحمن وهو يبادل هاني نظرات الاحتقار:

- إن جنتي لا يمكن أن تكون جنتك.. ونارك لا يمكن أن تكون ناري.. سواء في الدنيا أو في الآخرة!..

وصفاء تستمع إليهما وتنقل عينيها بين الاثنين وعلى شفتيها ابتسامة واسعة، كأنها متباهية بأن تكون دافع هذا النقاش الصاخب الحاد. ثم ابتلعت ابتسامتها وقالت تقاطعهما في صوت تتعمد أن يكون هادئا كأنه صوت فتاة خجول:

- إن ما يدفعني إلى المطالبة بأن يحمل كلاكما مسئولية إنقاذي من حيرتي هو أني أحبكما أنتما الاثنين.. وقد قضيت شهورا حاولت أن اختار بينكما.. فلم أستطع.. إن أيا منكما لا يمكن أن يغنيني عن الآخر..

وصاح عبد الرحمن وهو يشد في شعرات لحيته الصغيرة الأنيقة:

- كيف يجمع قلبك بين حب اثنين متناقضين كل هذا التناقض؟!

وقال هاني لصفاء ساخرا كعادته:

- إنك لا تستطيعين أن تجمعي بين الجوع والشبع في وقت واحد وفي حياة واحدة.. وعليك أن تختاري بين أن تعيشي جوعى (وأشار إلى عبدالرحمن) أو تعيشي شبعى معي!..

وقالت صفاء محتفظة بهدوئها:

- إني أحس أن التناقض بينكما يوفر لي منتهى السعادة ويمدني بأجمل وأرقى ما في الحياة.. ثم إني لا أختار بين الجوع والشبع وأنتما الاثنان لي.. إني أشبع بلقاء أي منكما، ثم لا ألبث أن أحس بالجوع نحو الآخر فألجأ إليه لأشبع.. ولو فقدت أي واحد منكما فلن يدوم شبعي، ولن أحمي نفسي من الجوع.. ومثلا.. إن عبد الرحمن يتصل بي كل صباح بالتليفون ويسألني.. هل صليت الفجر.. وأكون فعلا قد صليت الفجر ووقفت هيمانة بين يدي الله.. إنها سعادة هائلة وفرها لي عبد الرحمن.. وكأن الله أرسله لي ليأخذني إلى متعة الإيمان به والتعبد إليه.. وبعدها أو قبلها يكون هاني اتصل بي يسألني: هل استمتعت بشريط الفيديو الذي أرسله إليّ ويعرض مجموعة أغان واستعراضات للفنان الأمريكي الرائع مايكل جاكسون.. وأكون فعلا قد استمتعت به.. إنها متعة رائعة تجعل كل خلجة من خلجاتي ترقص في

داخلي رقصة الفرحة بالحياة.. وكأن الله قد أرسل إليّ هاني أيضا ليأخذني إلى أرقى متع الحياة في الدنيا..

ومثلا أيضا.. إني عندما أكون على موعد مع عبد الرحمن أقف طويلا أمام المرآة لألف رأسي وعنقي بالوشاح الحرير الأبيض.. وأهندم فوق جسدي ثوبا طويلا يغطي قوامي حتى قدمي.. فهكذا يريد عبد الرحمن أن يراني.. وأنا أرى نفسي تحت الوشاح والثوب الطويل بأني في منتهى الجمال.. بل أحس بالتباهي بجمالي تباهيا يقنعني بأني أجمل ملاك أنزله الله على الأرض.. ولكني عندما أكون على موعد مع هاني أقف أمام المرآة طويلا وأنا أصفف شعري وأجند كل عبقريتي في اختيار تسريحة رائعة مذهلة.. ثم أختار ثوبا قصيرا يعلن عن جمال ساقي من تحت الركبتين.. وجمال قوامي كله.. وأعلن عن هذا الجمال إعلانا محترما مهذبا على قدر ما يشد عيون الناس ويرخيها تبجيلا واحتراما لرزانة هذا الجمال.. وهكذا يريد هاني أن يراني دائما.. وأنا أحس بمتعة فائقة وأنا أتباهى بجمالي بعد أن أرفع الحجاب.. وأحس كأني أجمل فتاة في العالم كله تستطيع أن تحتفظ باحترام جمالها.. وقد وصلت إلى أن أصبحت لا أستطيع أن أستغنى عن متعة الظهور محجبة ومتعة الظهور بلا حجاب.. فأصبحت أجمع بين المتعتين، ولا أستطيع أن أتخلص من إحداهما.. كما أجمع بينكما ولا أستطيع أن أستغنى بواحد منكما عن الآخر..

وقال عبد الرحمن:

- كيف تستطيعين أن تجمعي بين أن تكوني مؤمنة وفي الوقت نفسه كافرة.. كيف تجمعين بين الحلال والحرام؟!

وقالت صفاء كأنها تلومه:

- إني لا أحس بأن أيا منكما يوحي إليّ بالحرام.. وكل منكما

لا يدفعني إلا إلى ما هو حلال..

وقال عبد الرحمن ساخطا:

- إن كشف شعرك أمام الناس.. ثم الكشف عن عنقك وساقيك.. هو حرام.. فقد حرم الله على المرأة تعمد إغراء الرجل بإثارة نوازعه الطبيعية التي تدفعه إلى نهمها جسديا.. فإذا كشفت عن شعرك وعن قطع من لحمك أمام الرجال، فكأنك تلقين بنفسك تحت أقدامهم ليتصارعوا على من فيهم يستولي عليك ليتذوقك جسديا ويحوز على متعة غرس أصابعه في طيات شعرك.. أي أنك ترتكبين جريمة حرمها الله.. جريمة الإغراء العلني.

وقالت صفاء وهي تطلق ضحكتها العالية:

- إني أحس كأني أكثر إغراء وأنا أغطي رأسي وعنقي بالوشاح، وأغطي ذراعي وقوامي كله بثوبه طويل.. أحس بعيون الرجال تهجم عليّ بعنف كأنها تحاول أن ترفع عن رأسي هذا الوشاح وتمزق ثوبي الطويل لتمتع نفسها بما هو تحته!..

وقال هاني كأنه يسخر من عبد الرحمن:

- إن أي شيء مخبأ أو مغطى هو أكثر إثارة للإغراء من أي شيء مكشوف.. بدافع غريزة استطلاع المجهول.. وقد خلقت أمنا حواء عارية.. أحست كأن سيدنا آدم يعتبرها مخلوقا سهلا رخيصا لا تحمل في كيانها أي ما تضن به على عينيه.. فبدأت بوحي من الله تغطي نواحي من جسدها حتى تثير في آدم غريزة اكتشاف كل ما لا تصل إليه عيناه.. أي غريزة ضعفه أمام المجهول.. الضعف الذي يدفعه إلى التعلق بهذا المجهول واحترامه، بل وعبادته إلى أن يصل إلى اكتشافه ليتخلص من ضعفه أمامه.. واستمر نسل حواء في الحرص على تغطية نواحي الجسد احتفاظا بإغراء الرجل بالتطلع إلى كشف ما هو بعيد عن عينيه.. وإن كان نسل حواء على مر العصور استمر بينهن الخلاف حول تحديد ما يخبأ وما يكشف عنه.. والرجل وجد أن الطريق السهل والشرعي لاكتشاف المجهول هو الزواج.. وهو ما يحقق اكتشاف كل من الزوجين للآخر جسديا وروحيا وفكريا.. ولذلك تتغير العلاقات بين الاثنين بعد الزواج عما كانت عليه قبل الزواج.. أي تتغير بعد اكتشاف كل منهما للآخر عما كانت عليه قبل أن يتحقق هذا الاكتشاف.. اكتشاف ما كان مجهولا مخبأ ومغطى..

وصاح عبد الرحمن مستنكرا:

- هذا منطق الكافر لتبرير كفره.. والمؤمن هو من يتمسك بالنص دون نقاش.. فحكمة الله لا يمكن أن

يصل إليها أي نقاش..

وقال هاني في تحد:

- إني لا أناقش.. ولكني أستشهد بالواقع الذي أتاحه الله لبني البشر.. ومثلا.. لقد تعودت أن أعيش هذا الواقع كل صيف على شاطئ البحر وحول حمامات السباحة داخل النوادي.. وكل البنات والنساء من حولي عرايا لا يغطي أجسادهن سوى قطعة صغيرة من القماش.. يسمونها «مايوه».. دون أن يثير هذا العري في نفسي أي دوافع شاذة للوصول إلى أي جسد.. فقد تعودت على هذا الواقع حتى أصبح مظهرا طبيعيا من مظاهر الحياة.. وإن كنت أحس في الصيف بمتعة اكتشاف ما يغطى في الشتاء.. إلى أن ظهرت على هذا الشاطئ فجأة فتاة تلم كل شعرها داخل غطاء ثقيل يمتد حتى يلف كل عنقها.. كما أنها ترتدي ثوبا كأنه جلباب يغطي كل جسدها حتى قدميها.. وانطلقت كل عيون الرجال تبحلق في هذه الفتاة..وتهمل البحلقة في الأجساد التي يكشف عنها المايوه.. كأنها عيون تحاول أن ترفع الغطاء عن رأسها وتمزق الثوب الذي يغطي جسدها.. ثم حدث ما هو أكثر من ذلك.. فقد أقدمت الفتاة على إلقاء نفسها في مياه البحر كما هي لتسبح كبقية البنات.. ثم خرجت من البحر وثوبها الطويل قد ألصقته المياه بكل منحنيات جسدها وبكل تفاصيل هذه المنحنيات، مما جعله أكثر إثارة أمام أعين الرجال من أي جسد مكشوف.. والذي حدث أن أكثر من عشرة

رجال لم يستطيعوا مقاومة هذا الإغراء، وقرروا اتباع الطريق السهل السريع بأن تقدموا إلى أهلها يطلبونها للزواج..

وصاح عبد الرحمن مقاطعا:

- إن هذه الفتاة خرجت عن تعاليم الدين حتى بعد أن أخفت شعرها وسترت لحمها عن عيون الرجال.. فالدين لا يبيح إزاحة الكلفة بين النساء والرجال حتى يلهون معا في بحر واحد.. ولا حتى بحجة بريئة وهي حجة تأدية رياضة السباحة.. فيجب أن تكون للمرأة مناطق خاصة من البحر لا يقربها الرجال ولا تصل إليها أعينهم ولو من بعيد..

وقالت صفاء ضاحكة:

- لم يعد على أي شاطئ من شواطئ مصر نظام يفرض تخصيص مكان أو فترة محددة للنساء دون الرجال.. كل شواطئ مصر اعترفت باختلاط الجنسين في السباحة واللهو بمياه كل البحر الأبيض والبحر الأحمر.. ولو صممت على أن تبعد عني الرجال فعليك، أن تنقل لي البحر إلى داخل البيت.. حتى لا تحرمني من متعة أحلها الله..

وقال عبد الرحمن كأنه يصدر أمرا:

- الله لم يحل للمرأة متعة إثارة إغراء الرجال.. ثم إنك لن تفقدي شيئا بحرمان نفسك من متعة اللهو في مياه البحر..

وقالت صفاء في استسلام:

- فعلا.. لن أفقد شيئا..

وانطلق عبد الرحمن قائلا كأن استسلام صفاء قد شجعه على الانطلاق:

- ثم إنك تقولين إنك بعد تأدية الصلاة تستمعين إلى الموسيقى الأجنبية التي يهدي لك تسجيلاتها هذا الكافر الجالس معنا.. ويجب أن تعلمي أن هذه الموسيقى هي أقوى الأسلحة التي يلجأ إليها الكفار في محاربة الإسلام.. إنها تحض على الفسق والانحلال وتصل إلى أن تلقي بكل فتاة في أحضان رجل بحجة مراقصتها.. وهذا هو منتهى ا لكفر بدين الله.. ويكفيك كمؤمنة إمتاع أذنيك بتلاوة آيات الذكر الحكيم حتى مع إضافة الاستماع إلى الموسيقى العربية الهادئة التي تمتع الروح دون أن تحرك الجسد..

وقالت صفاء وضحكتها قد فترت حتى كأنها تستجدي عبد الرحمن أن يرحمها:

- إني لم أحس بأني أدفع إلى الحرام وأنا أستمع إلى الموسيقى الأجنبية أو حتى وأنا أراقص هاني..

وصاح هاني كأنه يجاهد لإنقاذ صفاء:

- منذ بدأت الدعوة لدين الإسلام والشعوب الإسلامية تأخذ ما وصلت إليه أوجه الحضارة في كل أنحاء العالم.. الحضارة العلمية.. والحضارة الفنية.. والحضارة الاجتماعية.. أي تأخذ حضارة غير المسلمين وتعطيهم من حضارة الإسلام.. وهذه الموسيقى التي تعتبرها أجنبية هي تطور من تطورات الحضارة الفنية التي

تنطلق من الوجود الإنساني كله وتعبر عنه.. ولعلك لا تعلم أن ألحان هذه الموسيقى هي أقرب الألحان إلى موسيقى الغابة التي انطلقت في العصور السحيقة منذ بداية أن وجد الإنسان.. أي أنها ليست موسيقى مفتعلة.. ولكنها تطور في التعبير الموسيقي عن طبيعة الإنسان.. وقد تكون موسيقى هادئة وتعبر عن طبيعة الإنسان في تغنيه بجمال الدنيا التي أقامها له الله.. وقد تكون موسيقى عنيفة تعبر عن واقعية العنف الذي يواجهه الإنسان في هذه الحياة..

وقال عبد الرحمن وهو في منتهى الاشمئزاز:

- لقد قلت إن الموسيقى الحلال هي التي تحقق إمتاع الروح من خلال استماع الأذنين.. فإن أدت إلى تحريك الجسد فهي موسيقى حرام.. وهذه الموسيقى الأجنبية تحرض على تحريك الجسد.. كأن كل جسد يقوم بدعوة إلى الحرام!..

وقال هاني وهو يبادل عبد الرحمن الازدراء:

- إن الروح لا تنفصل عن الجسد.. وكل المتع الروحية يعبر عنها الإنسان جسديا.. حتى بلا موسيقى.. إن إيمانك الروحي بالإسلام يدفعك إلى تحريك جسدك لأداء الصلاة.. وإذا تلقيت نبأ أثارك روحيا بالغضب أو بالرضاء حركت جسدك تعبيرا عن هذا الغضب أو الرضاء.. وقد تحركه تحركات تلقائية شاذة.. وكل الألحان الموسيقية تدفع إلى تحريك نواح جسدية.. وقد تستمع إلى إغنية من أغاني أم كلثوم أو محمد عبد

الوهاب.. فتجد نفسك تحرك جسدك كأنك ترقص مع أن لا أم كلثوم ولا عبد الوهاب يدعوانك إلى الرقص..

وقال عبد الرحمن مقاطعا:

- إن هذه الموسيقى الأجنبية تحرض كل امرأة على أن تلقي بنفسها بين أحضان الرجل بحجة المراقصة.. أي تجمع بين جسد المرأة وجسد الرجل في التصاق كامل، كأنهما في طريقهما إلى فراش يجمعهما بعد أن تكف عنهما هذه الموسيقى!..

وقال هاني وهو يلوي شفتيه كأنه يهم بالبصق على عبد الرحمن:

- إن الرقص يقوم على نية ودوافع مَن يرقص.. فقد يرقص الرجل ونيته خالصة لتحقيق متعة الاستماع للموسيقى وتحريك قدميه على أنغامها بمصاحبة المرأة.. وكذلك المرأة.. فقد لا تحس بأنها بين أحضان رجل رغم أنها ملتصقة به وهي تراقصه.. كل ما تحس به هو متعة الموسيقى ومتعة الرقص..

وصاح عبد الرحمن:

- إن مجرد هذا الالتصاق هو تحريض على الحرام مهما سلمت النيات!..

وصاح هاني في مواجهة صياح عبد الرحمن:

- إن الجبناء الضعفاء لا يشعرون بالمرأة إلا كوعاء لتفريغ شهواتهم الجنسية.. لذلك يعتبرون أي تحرك في هذا الوعاء كأنه دعوة إلى الفسق.. حتى لو رقصت المرأة وحدها بلا رجل.. وقد كنا نعيش متعة في الرقص

البلدي.. التي تقوم به المرأة وحدها بهزات من جسدها.. وهو فن يمكن اعتباره أقوى وأرقى تعبيرا فنيا عن أحاسيس الإنسان.. ولكن الجبناء الضعفاء لم يتأثروا إلا بجسد امرأة يتحرك أمامهم ويثير شهواتهم الجنسية.. لم يحسوا بأي فن.. فطالبوا بتحريم هذا الرقص.. وامتنعت الدولة فعلا عن الاعتراف به كفن يعرض على شاشة التليفزيون.. ولكنها لم تستطع حتى اليوم إلغاء هذا الفن من الوجود.. إنما حولته إلى استعراضات فنية تجمع بين النساء والرجال..وتطورت بالحركات الراقصة..كما يبدو في عروض فرقة رضا الراقصة.. وإن كانت كلها تطورات لا تهرب من حركات التعبير بالرقص البلدي.. أي لا تهرب من هز البطن.. وفي الوقت نفسه فإن كل فتاة أصبحت ترقص هذا الرقص البلدي خفية أمام المرآة أو بين صديقاتها.. لأنها ليست مقتنعة بأنه حرام..ولأنها لا يمكن أن تعتبر جسدها مجرد وعاء لإشباع شهوة الرجل..

وقال عبد الرحمن متحديا:

- هل تبيح لأختك أن ترقص بهز بطنها؟

وقال هاني دون أن يتلعثم محرجا:

- إن أختي لا تحترف الرقص.. ولكنها ترقص أمام المرآة.. وفي مجتمع الصديقات.. بل وترقص في السهرات الاجتماعية حتى لو جمعت غرباء.. إننا كلنا لم نعد نكتفي بالرقص الإفرنجي.. أي رقص الرومبا والتانجو والفوكس والروك أند رول.. بل كلنا.. نساء

ورجالا.. نرقص أيضا الرقص البلدي في السهرات التي تجمعنا، لأننا نعتبره فنا راقيا يهز أجسامنا موسيقيا هزات منطلقة معبرة عن طبيعتنا ومريحة لأعصابنا.. كما هو الرقص في كل مجتمعات العالم..

وقال عبد الرحمن كأنه يصدر حكما نهائيا:

- مصيرك نار جهنم.. أنت وأختك..

وكانت صفاء جالسة تستمع إلى هذا النقاش الطويل بين المتناقضين وتحس كأن كلا منهما يشدها إليه.. وقالت:

- إني لا أرقص بهز بطني حتى أمام المرآة.. لأني لا أحس بداع يدفعني إلى هذا الفن..

وقال عبد الرحمن في إصرار:

- إن دافعك هو إيمانك بالله وتعاليم الإسلام.. ولك الجنة..

ونظرت إليه كأنها تهم أن تقول له إنها حتى لا تحس بأن الإيمان هو الذي يدفعها إلى رفض الرقص البلدي.. إنما هو مجرد عدم تعلقها بهذا الفن..

ولكنها عدلت أن تقول هذا الكلام وكمشت ابتسامتها.. وقالت في لهجة جادة:

- إنكما إلى الآن لم تحلا مشكلتي بحيرتي بينكما.. وأنا لا أستطيع أن أستغنى عن أحدكما..

وقال هاني ضاحكا ساخرًا:

- تزوجينا نحن الاثنين..

وصاح عبد الرحمن:

- إنك تدعوها إلى ارتكاب الزنا.. فإنك تعلم أن ليس من حق المرأة أن تجمع بين زوجين.. ولا يمكن أن يجمعنا نحن الاثنين بها إلا ارتكاب خطيئة الزنا..

واستمر هاني ضاحكا كأنه ليس جادا فيما يقول وإنما يلقي مجرد نكات يثير بها مناقشات مسلية.. وقال:

- إنك تستطيع أن تفسر منح الله للرجل حق الزواج بأربعة نساء بأنه تغطية واقعية لاحتياجات الرجل.. على أن يعدل بين من يتزوجهن.. أي أن شرط تعدد الزوجات هو احتياجات الرجل التي تبرر هذا التعدد.. مع شرط أن يحقق العدالة بينهن.. وإن كان الله قد حذر الرجل من أنه لن يستطيع تحقيق هذه العدالة.. وهذا التفسير ينطبق على صفاء رغم أنها امرأة وليست رجلا يشمله النص.. فقد وجدت نفسها بلا تعمد ولا افتعال في حاجة إلى كلينا.. ولا أدري ما إذا كانت تستطيع أن تحقق العدالة بيننا نحن الاثنين.. ولكن.. يظهر أن المرأة أعجز عن تحقيق العدالة من الرجل.. لذلك حرمها الله من حق الجمع بين الأزواج.. كما أن الإسلام يفرض نسبة المولود إلى الأب.. فإذا تزوجت المرأة بأكثر من رجل عجزت عندما تلد عن تحديد أب هذا المولود.. لذلك فرض عليها ألا يكون لها إلا رجل واحد.. وهو ما تخلص منه الكافرون الزنادقة فأصبحوا ينسبون المولود إلى الأم.. كأنهم يبيحون للمرأة حرية الفسق.. وحتى اليوم فإن شعب هضبة التبت على قمة جبال الهملايا يعطي المرأة حق الجمع بين الأزواج.. مثنى وثلاث حتى لو وصل

عددهم إلى مائة.. ولكن الله رأفة بالمرأة منحها أبغض الحلال الذي منحه للرجل أيضا.. وهو حق الطلاق.. حتى تستطيع أن تواجه النكبات التي تحيط باحتياجاتها.. فتطلق زوجا لتتزوج بآخر.. أي أن من حقها أن تعدد الأزواج فرادى لا جمعا.. أي أن من حق صفاء أن تتزوجني فترة.. عاما أو عامين.. ثم تطلقني لتتزوجك.. مادامت لا تستطيع أن تستغني عن كلينا.. وإن كنت واثقا أنها ستعود إليّ بعد أقل من عام..

وصاح عبد الرحمن هو يشوح بيده كأنه يهم أن يصفع هاني:

- ليس من حقك أن تخضع أي نص لأي تفسير تنطلق به أهواؤك ودوافعك الإجرامية الكافرة..

وقال هاني كأنه سعيد بإثارة سخط عبد الرحمن:

- لقد وهبنا الله عقلا نفكر به كأنه منحنا حق تفسير النصوص.. حتى لا يكون إيماننا به مجرد استسلام للمجهول.. بل يكون إيمانا عن اقتناع فكري.. وكل أئمة وعلماء الإسلام كان لهم حق التفسير واختلفوا فيما وصلوا إليه بتفسيراتهم.. وكلهم مؤمنون..

وقالت صفاء تقاطع الاثنين وهي تنظر إلى هاني كأنها تلومه وتسكته:

- لم يخطر على بالي أن أتزوجكما أنتما الاثنان.. ولا حتى واحدا بعد الآخر.. ولكني فكرت طويلا في أن أقسم نفسي بينكما..

وقال هاني مذهولا:

- كيف؟!

وقال عبد الرحمن كأنه تلقى حجرا ثقيلا على رأسه:

- ماذا تقسمينه بيننا؟

واعتدلت صفاء في جلستها وقالت بعد أن ابتلعت ريقها:

- إني اعتبر نفسي كأني أجمع بين شخصيتين.. شخصية فتاة جميلة محترمة فاضلة.. وأنا واثقة من أني جميلة ومحترمة وفاضلة.. لست مغرورة.. ولكنه واقع يمثلني.. وهو واقع يدفعني إلى الثقة المتناهية في أن كلا منكما يحبني كما أحبه.. أما شخصيتي الثانية فهي شخصية فتاة غنية تملك نسبة من الثراء.. لقد ورثت عن أبي خمسين فدانا عند مدخل مدينة طنطا بدأت تتحول إلى أراض للبناء وتباع بالمتر وبثمن عال.. كما وقع من نصيبي هذه العمارة التي أقيم فيها.. بجانب نصيبي من شهادات الاستثمار وحسابات البنوك التي تركها أبي.. ولأني أريدكما أنتما الاثنان فقد قررت أن أقسم نفسي بينكما.. فتكون شخصيتي الأولى لواحد وشخصيتي الثانية للآخر.. أي يكون لواحد شخصية الفتاة الجميلة المحترمة الفاضلة.. ويجمعني به الزواج.. ويكون للثاني شخصية الفتاة التي تعيش ثراءها.. ويجمعني به أن أكتب له توكيلا عاما للتصرف في كل أملاكي.. وبذلك تربطني به كل احتياجاتي لتوفير رخاء حياتي.. المهم هو أن تقررا أنتما الاثنان من يكون زوجي ومن يملك توفير الحياة لي.. فأنتما المسئولان عني

مسئولية واحدة ولا أستطيع أن أفرق بينكما حتى أختار من يتحمل مسئولية هذه الشخصية أو تلك..

والتفت عبد الرحمن وهاني كل منهما إلى الآخر بعد أن كان كل منهما يتجاهل وجود الآخر.. وفي عيونهما نظرة هالعة كأن الاثنين تلقيا صدمة واحدة مفاجئة.. ثم عاد عبد الرحمن يلتفت إلى صفاء وقال وهو يضغط بأعصابه على صوته حتى لا ينطلق به صارخا:

- إن من يتزوجك في هذه الحالة سيفقد حقوقا هي من حق الزوج.. وهي أساس الجمع بين كل زوجين جمعا كاملا مستقرا.. كلها له.. وكله لها..

واستطرد هاني كأنه يكمل كلام عبد الرحمن في رنة ساخرة:

- إن من توكلينه للتصرف وإدارة ما تملكين سيكون مجرد موظف لديك.. وظيفة قد تحتاج إلى الثقة بالموظف ولكنها لا تكون على الحب الكامل الواسع.. ولن يكون بينك وبينه إلا حديث أرقام الحسابات.. كم جاءك به.. وكم ضيعه عليك.. والأرقام لا تدخل في لغة الحب..

وصاحت صفاء وضحكتها تتردد مع صياحها:

- كلاكما لا ترتفعان إلى حالة الحب التي أعيشها وتجمعني بكليكما.. وسيكون من حق من يكون زوجي منكما أن يأخذ جسدي ويوفر له مطالبه.. وسيكون أبا لأولادي.. ولكن الحب لا يمكن أن يكون مقصورا على إشباع مطالب الجسد ولا على مجرد إنجاب الأطفال..

ثم إن من سأوكله للتصرف في أملاكي لن يكون مجرد موظف.. إنه سيتحمل مسئولية توفير كل ما تتطلبه حياتي.. ومطالب الحياة ليست مقصورة على توفير المظاهر بقدر ما تملك.. ولكنها تقوم على توفير المطالب الروحية والعاطفية التي تنطلق من الحب.. وقد مضى الآن عامان والحب يجمعني بكما أنتما الاثنين.. رغم أنه لم يكن لأحدكما جسدي ولا للآخر أملاكي.. وقد عشت بكما منتهى السعادة.. إني أحس فعلا بأني قطعة من كل منكما.. ويجمعني بكل منكما تجاوب الروح والفكر وانطلاق هناء الحياة.. ورغم تناقضكما في مجال الحياة التي اختارها كل منكما لنفسه إلا أني لا أحس بهذا التناقض.. بل أحس أن كلا منكما يكمل الآخر في داخلي.. حتى أني لو فقدت أحدكما فكأني فقدت نصف كياني.. وعشت بنصف واحد وتصبح حياتي مشلولة.. وكل ما أريده الآن هو أن أضع حياتي في صورة واقعية شرعية يعترف بها البشر حتى أضمن الحياة لحبي.. حب كليكما.. سيكون من بينكما زوج أجاهر به الناس.. ومن بينكما مسئول عن حياتي أجاهر بمسئوليته.. وستستمر حياتي ملكا لكما أنتما الاثنين.. وسأعيش الحب..

وهَمَ عبد الرحمن وهاني أن يتكلما.. ولكن صفاء نطرت نفسها من جلستها وقامت واقفة كأنها تعلن نهاية اللقاء.. وقالت:

- إني مصرة على أن تتحملا مسئولية الاتفاق على تقسيم حياتي بينكما.. وقد عودتماني على الاستجابة لي كلما أصررت..

ونظرت إلى هاني وقالت:

- اوروفوار..

ثم نظرت إلى عبد الرحمن وقالت:

- السلام عليكم ورحمة الله..

وتركتهما واختفت عنهما داخل البيت..

ونظر عبد الرحمن وهاني كل منهما إلى الآخر في سخط ثائر.. كأن كلا منهما يتهم الآخر بأنه السبب في هذه المصيبة.. ثم أدار كل منهما رأسه عن الآخر وخرجا من البيت وقفا كل منهما يواجه قفا الآخر..

ومرت أيام دون أن يجتمع عبد الرحمن بهاني ليبحثا فيما تطلبه منهما صفاء.. وإن كان كل منهما يحادث صفاء كل يوم في التليفون.. وقد صحبها عبد الرحمن يوما وجلس معها في الحديقة بعد صلاة الظهر.. وصحبها هاني مرة وراقصها في النادي بعد أن كانت قد انتهت من أداء صلاة العشاء.. وكل منهما يحاول إقناعها بأن تحتفظ لنفسها بشخصية واحدة وتختار من تعيش معه بهذه الشخصية.. ولكنها

لا تزال مصرة على أن لها شخصيتين.. شخصية الفتاة الجميلة المحترمة الفاضلة.. وشخصية الفتاة الوافرة الثراء.. وتترك لهما الاتفاق على الشخصية التي يعايشها كل منهما..

إلى أن فوجئ الاثنان بصفاء تدعوهما إلى لقاء آخر مشترك.. وقد جلسا أمامها وكل منهما متعلق بالأمل في أن تكون قد عدلت عن إصرارها..

وقالت صفاء وهي تتنهد بابتسامتها الواسعة:

- لقد أبلغت أخي محمود بما عرضته عليكما حتى أعيش الحب الذي يجمعني بكما.. ولكنه لم يقتنع وسخف كل آرائي وأكد لي فشل ما أحاول أن أتصوره من حياة قائمة على شخصيتين يتحمل كل منكما مسئولية إحداهما.. وذلك رغم أني أكدت له أنه ليس بينكما من يحاول أن يتزوجني طمعا في مشاركتي في أملاكي.. كما أنه ليس بينكما من يقبل تفويضي له في التصرف بهذه الأملاك وهو ينوي أن يستغلها لنفسه وحده.. ولكن أخي لم يقتنع بأي كلمة قلتها وأصر في النهاية على أن يكون هو وكيلي العام في السيطرة على كل ما أملكه.. واضطررت أن أخضع له وأستسلم لما يريد..

وقال عبد الرحمن في صوت مرتعش كأنه يواجه صدمة أخرى يحاول أن يدعي أنها لم تصل إليه:

- إن من حقه أن يتولى إدارة كل أملاك العائلة.. فهو الأخ الأكبر..

وقال هاني في سخط:

- إن المعروف عن أخيك محمود أنه بخيل.. منتهى البخل..

وقالت صفاء عاجلة كأنها تخاف أن تفقدهما:

- لقد غيرت في خطتي التي تحتفظ لي بحبي لكما أنتما الاثنين.. فمن لن يكون زوجي سيكون ولي أمري ويتولى التعامل مع أخي.. أي مجرد تغيير في الشكليات والأوراق الرسمية.. فأنتما الاثنان أقرب إليّ من أخي.. ولن أستطيع أن أستغنى عن أحدكما حتى لو استغنيت عن أخي..

وعبد الرحمن وهاني كل منهما منكس الرأس لا ينظر إلى الآخر ولا يواجهان صفاء بعيونهما.. وقالت صفاء كأنها دهشة من هذا الصمت:

- ما رأيكما؟!

وقال عبد الرحمن وهو يقوم واقفا ومسبحته الطويلة تهتز بين أصابعه وتطلق نقرات حادة:

- لم نتفق بعد على رأي.. واسمحي لي فإني على موعد.. السلام عليكم..

وقفز هاني واقفا وهو يقول كأنه يستغيث بعبد الرحمن:

- خذني معك.. فإني أيضا على موعد.. أوروفوار صفاء..

وتركا صفاء.. وأُغلق وراءهما الباب.. وقال هاني في حدة:

- إني لا يمكن أن أتزوجها.. إنها مجنونة!..

وقال عبد الرحمن وهو يشوح بمسبحته:

- ولا أنا.. إني أخاف من جنونها على إيماني بفروض الله.. ودخلا المصعد لينزل بهما معا إلى الأرض..

* * *

دموع ابني..

لم يكن عوض الله يملك شيئا من مطالب الحياة، ولكنه بينه وبين نفسه كان يحس بأنه يملك كل ما يريد.. أو على الأقل يحس بالقدرة على أنه يملك ما يريد.. ولم يكن أبدا يريد شيئا لا تستطيع قدرته أن تصل إليه..

وقد وعى الحياة وهو في منتهى الفقر.. ولكنه لم يكن يحس بالفقر إنما يحس بأن هذه هي طبيعة الحياة.. وكان أبوه وأمه يلقيان به في الزقاق ويتركانه وحده وينصرف كل منهما إلى عمله.. ولا يدري ما هو عمل كل منهما.. وكان يرى كثيرا من الأمهات يبقين في الزقاق طوال النهار وهن يصرخن في أولادهن.. ولكنه لم يسأل نفسه لماذا تتركه أمه ليكون الطفل الوحيد في الزقاق المحروم من الصراخ!.. هكذا أمه وهكذا هو..

وكان يرى أطفال الزقاق وأفواههم محشوة بشيء تمدهم به أمهاتهم.. ولكن فمه يظل فارغا طوال النهار.. ولم يكن يحاول أن يمد يده إلى أي طفل آخر ليعطيه أي قطعة مما يأكله..حتى لو كانت قطعة ممضوغة يشدها له من فمه قبل أن يبتلعها.. إنه لا يعلم أن الشحاذة توفر أحيانا ما يحتاجه الإنسان.. وإن كانت قد مرت به لحظات تطوع فيها أحد الأطفال وأخرج من فمه ما وضعه في فم عوض الله..

واستسلم صامتا وابتلع ما دخل فمه دون أن يحس بأي شيء..

لا يحس بشبع ولا بطعم.. إلى أن تعود أمه في المساء وهي تحمل في يدها لفافة.. وتأخذه وتدخل به بين الحوائط وهو مستسلم في لهفة فرحة.. ثم تفتح أمامه اللفافة.. ولا يحاول أن يعرف ما فيها.. وما يعرفه هو أن كل ما فيها يؤكل.. فيأكل أي شيء تمتد إليه أصابعه دون أن يتعمد اختيار ما يأكله ودون أن يحس بفارق بين صنف وصنف.. كل ما يحس به أنه يملأ بطنه.. وهو أكثر سعادة كلما امتلأت أكثر.. وقد رأى بعد أن نما قليلا أن بعض الأطفال يخرجون كل صباح من الزقاق ويدخلون الكتّاب القائم على الناصية.. وقد حاول ذات صباح أن يصحبهم، ولكنه ما كاد يهم بدخول الكتّاب حتى شهر الشيخ عصاه في وجهه وصاح:

- من أنت يا واد؟!.. أنا لا أعرفك.. أين أبوك؟!.. إنه لم يأت إليّ ولم أره..

ثم انهال عليه بعصاه فجرى من أمامه هاربا مختبأ في الزقاق..

وقد ظل طوال النهار منتظرا والده إلى أن عاد في المساء فقال له إن شيخ الكتّاب يسأل عنه ويريد أن يلقاه.. وصرخ أبوه صرخة دوت حتى تكاد تهز الحوائط كعادته كلما أطلق كلمة حتى لو كانت كلمة رضاء وقال:

- ماذا يريد هذا الشيخ المأفون من؟!.. يريد القروش العشرة التي يطالب بها مقدما.. رغم أنهم يقولون إنه

كتّاب لوجه الله.. إنه يريدني أن أكون جحشا كباقي أهل الحارة.. وأنت.. ما الذي وصل بك إلى الكتّاب؟!.. هل سلطوك عليّ؟!.. والله لأذبحك قبل أن تذبحني..

وانهال عليه ضربا.. والطفل عوض الله مستسلم في أنين خافت.. إلى أن عاد أبوه يصرخ:

- بكره تكبر وتتعلم شغلة تأكل منها عيش.. شيخ الكتّاب يأكل منك ولا يتركك تأكل منه..

ولم يعد من يومها يطرأ على باله أن يتردد على الكتّاب.. ورغم استسلامه لكل حياته داخل الزقاق إلا أن شيئا بدأ يلح عليه ويغريه.. فقد شاهد أطفالا في يد كل منهم مصاصة يلعقها بلسانه.. وأحس بانجذاب شديد نحو هذه المصاصة حتى أصبح لسانه يتدلى منه كلما رآها مع أي طفل.. إن عم محروس في جلسته عند مدخل الزقاق يبيع هذه المصاصات.. الواحدة بمليم.. فكيف يستطيع أن يحصل على مليم؟!.. لا يدري.. ولم يخطر على باله أن يتسلل من وراء عم محروس ويخطف مصاصة.. إنه لا يعرف الخطف ولا السرقة.. وظل لسانه يتدلى كلما رأى مصاصة في يد أحد الأطفال.. كأنه يشحذ بلسانه.. وكان الأطفال أحيانا يتبادلون وضع المصاصات على ألسنة بعضهم الآخر.. كأنهم يتبادلون متعة تذوق حلاوتها.. ولكنهم كانوا يبخلون على لسانه.. لأنهم يعلمون أنه ليس من حملة المصاصات.. وإن كان قد جاد أحدهم مرة عليه ومرر مصاصته على لسانه.. وتذوق طعمها الحلو.. وظل

محتفظا بلسانه داخل فمه طوال اليوم دون أن يبتلع هذه الحلاوة كأنه يخشى أن تضيع منه في بطنه!..

وكان من عادة عوض الله كلما خرج إلى الزقاق فجر كل يوم أن يجلس قريبا من عمر برعي بائع الخضار، وهو جالس يغسل الخضروات ويرتبها فوق عربته الصغيرة التي يجرها بيديه ويخرج بها من الزقاق ويطوف بها أحياء بعيدة.. وفي يوم ناداه عم برعي وطلب منه أن يحمل صفيحة الماء التي يغسل فيها الخضروات ويفرغها خارج الزقاق.. وقام عوض الله بالمهمة فورا وعاد ليبدأ في معاونة عم برعي في كل ما يحتاج إليه.. ومن يومها وهو في كل فجر يعمل مع عم برعي.. يغسل العربة والخضروات ويرتبها.. وهو يعمل في منتهى الحماس ومنتهى الذكاء كأنه أصبح هو الآخر أحد بائعي الخضروات.. وبدأ عم برعي يتعود أن يجلس كل صباح وهو يدخن الجوزة ويترك عوض الله يعد له عربته التي يخرج بها من الزقاق..وبعد أيام رفع قطعة من الفجل وأعطاها لعوض الله مكافأة له.. ولكن عوض الله أعاد الفجل إليه قائلا في رجاء:

- أعطني مليما..

وبحلق عم برعي في وجهه طويلا كأنه دهش من جرأته ووقاحته، ولكنه مد يده في جيبه وأخرج له المليم.. والتقط عوض الله المليم وجرى به إلى عم محروس واشترى مصاصة..

وأصبح أول عمل يتحمل مسئوليته عوض الله هو غسل عربة عم برعي كل فجر.. وكل يومين أو ثلاثة أو كل أسبوع يعطيه مليما.. إلى أن طلب منه يوما أن يخرج معه من الزقاق ويسرح معه بالعربة.. لماذا لا؟! بدلا من أن تعيش مرميا في الزقاق.. وأصبحت مسئولية عوض الله تشمل جر العربة.. والصعود بالبضاعة إلى ما يطلبه المشترون والمشتريات من الشبابيك.. وعُرف عوض الله بين الزبائن حتى أصبحوا ينادون عليه من الشبابيك.. واد يا عوض.. طلع كيلو بصل..وربع كيلو طماطم.. وواظب عم برعي على إعطائه مليما في كل يوم.. وأحيانا تروج مبيعاته يوما عن يوم فيعطيه مليمين.. وهو يتعلم الكثير ويلتقط مشاهد جديدة خارج الزقاق.. وهو يكبر..ويعرف بنشاطه وصدقه في العمل حتى أصبح عم برعي يحسد عليه.. بل أصبح عم برعي يتراخى يوما عن الطواف بالعربة ويترك عوض الله يطوف بها وحده وهو مطمئن إلى محاسبته بعد أن يعود إليه.. وبدأ المليم الذي يجود به عم برعي يرتفع إلى قرش كامل!..

وكان قد أصبح في العاشرة من عمره.. وكان يطوف مع عم برعي بالعربة في شارع من الشوارع الواسعة عندما اقترب منهم الحاج محمود المرجوشي.. إنه شخصية هامة ومعروف بأنه صاحب نفوذ كبير.. ويعتبره عم برعي أهم وأرقى زبون لديه.. وركز الحاج

محمود عينيه على عوض الله كأنه خطرت على باله فكرة يقيسها عليه.. ثم قال لعم برعي:

- لماذا لا تترك عوض الله يعمل عندي في البيت.. إني في حاجة إليه.. ولك نصيبك..

وجز عم برعي على أسنانه وقال:

- الأمر أمرك يا حاج..

ثم لكز عوض الله في جنبه كأنه يحرضه على الرفض وهو يقول:

- ما رأيك ياواد يا عوض.. الحاج يريدك؟!..

وقال عوض الله فورا:

- موافق يا عم برعي.. أخدم عند الحاج..

إنه دائم التطلع إلى دنيا جديدة..

وهكذا أصبح خادما لدى عائلة الحاج محمود المرجوشي.. واستطاع بسرعة أن يكتسب بصدقه وأمانته وتفانيه في عمله ثقة وتعلق كل أفراد العائلة به.. وهو لا يدري كم كان يدفع الحاج محمود لعم برعي تعويضا عن أخذه منه كما وعده.. ولكن الحاج كان يدفع له هو شخصيا جنيها كاملا في الشهر.. ارتفع مع الشهور إلى اثنين من الجنيهات.. وكان يعود كل ليلة إلى أمه وأبيه في الزقاق ثم يقوم مع الفجر ليذهب إلى مقر عمله لدى الحاج محمود المرجوشي..

ولم تكن أمه ولا أبوه يسألانه عما يعمل ولا حتى أين يقضي يومه.. كل ما يرياه فيه أنه بدأ يعمل وأنه يكسب.. ولا حتى يسألانه عن كسبه أو يحاسبانه عليه..

إنهما يتركانه لنفسه ولحياته.. وهو لا يجد أي دافع لإشراكهما في حياته.. وكل ما يحرص عليه هو أن يعود كل مساء بعد المغرب إلى الزقاق وفي يده لفافة.. كما هي عادة أمه.. وهي لفافة تحمل ما يؤكل.. بعضه مما جاد عليه به الحاج محمود المرجوشي وبعضه اشتراه بنفسه.. ثم يفرد اللفافة على الأرض بجانب لفافة أمه ويلتقوا ليمدوا أيديهم إلى ما هو موجود ليؤكل.. دون أن يثير مذاق ما يأكلونه أي كلمة بينهم.. وأصبح يخص نفسه كل يوم حتى بعد أن كبر بشراء مصاصة.. ووصل إلى شراء مصاصة مميزة ثمنها خمسة مليمات لا مليم واحد.. يحتفظ بها بين شفتيه وفوق لسانه حتى وهو نائم!..

وبدأت الدنيا تتغير فجأة من حوله.. وهو لا يدري كيف ولماذا تتغير، ولكنه وجد نفسه يردد في فرحة اسم محمد نجيب ثم اسم جمال عبدالناصر.. كل أولاد الزقاق يرددون هذه الأسماء في فرح.. ومع مرور الأيام وجد أن كثيرا منهم يصلون إلى العمل في مصانع أو في وظائف حكومية.. والقروش والجنيهات بدأت تملأ الزقاق.. والملاليم فقدت قيمتها وهيبتها واحترامها.. وبدأ يحاول هو الآخر أن يكون موظفا في الحكومة.. إنه لا يقرأ ولا يكتب ولكن كل أولاد الزقاق لا يقرأون ولا يكتبون وكلهم أصبحوا موظفين في الحكومة.. وقبل أن يبدأ في السعي فوجئ بالحاج محمود المرجوشي يبلغه بأنه قد عينه موظفا في مؤسسة الدعوة إلى

الترقي التي أصبح رئيسا لها.. والمرتب كبير.. ثمانية جنيهات في الشهر.. وانفتح فوه في دهشة.. ثمانية جنيهات سيضعها في جيبه كل شهر.. ماذا يفعل بها؟!.. وعاجله الحاج محمود قائلا كأنه يصدر أمر الله:

- ليس معنى هذا أن تترك خدمة البيت.. ستذهب كل صباح لتوقع في دفتر المؤسسة ثم تعود إلى عملك هنا.. في البيت..

قال عوض الله في فرحة انبهاره:

- لن أترك بيت سيدي ولو قطعوا رقبتي..

وأصبح موظفا حكوميا وهو في السادسة عشرة من عمره.. وقد كف الحاج محمود عن إعطائه أجرا.. الحكومة تدفع له أجر خدمة الحاج محمود.. وهو لا يزال يعود كل مساء إلى الزقاق.. وهو يحتفظ بجنيهاته ملفوفة في حزام حول بطنه.. وقد لاحظ أن أمه أصبحت منهكة من العمل وتعجز أحيانا عن الخروج من الزقاق.. فأخذ يلح عليها كأنه يستجديها أن تكف عن العمل ويعرض عليها أن يعوضها.. ويقول:

- إني أكسب كثيرا يا أمي.. وسأعطيك جنيهين في الشهر.. وأستطيع أن أعطيك أكثر لو أردت..

واستسلمت أمه تحت ضغط ما تعانيه.. وتفرغت لحياة الزقاق تحت رعاية ابنها.. أما أبوه فلا يزال يخرج من الزقاق كل فجر ولا يعود إلا في المساء.. دون أن تنتابه فرحة بما يحدث في الحياة.. بل إنه يلوي شفتيه

ويطلق بصقة كأنه يبصق على الدنيا كلها كلما تردد أمامه اسم محمد نجيب أو عبد الناصر!..

ومرت السنوات.. وعوض الله وضع تنظيما جديدا ليومه.. إنه يذهب مع الفجر إلى بيت الحاج محمود ويقوم بخدمة العائلة.. ثم يترك البيت ليكون في الساعة الثامنة في مؤسسة الدعوة ويثبت وجوده.. ثم يعود فورا إلى بيت الحاج ليستمر في خدمة العائلة.. والمرتب الذي تدفعه له المؤسسة يرتفع لقد وصل إلى اثني عشر جنيها.. والحاج محمود نفسه قد مَنَّ الله عليه بكرمه وأصبح يجود عليه أحيانا..

إنه يستطيع الآن أن يتزوج.. وقد تزوج محروسة التي كان يعتقد في صباه أنه لن ينالها أبدا.. فقد كانت أجمل بنات الزقاق.. ولكنه لم يعد يطيق هذا الزقاق.. إن كثيرين من أولاده قد تركوه وخرجوا بعائلاتهم إلى الدنيا الأوسع.. والحاج محمود نفسه قد ترك حي الأزهر وأصبح يقيم بعيدا في حي مصر الجديدة.. ثم أن الحكومة تبني المساكن الشعبية ليقيم فيها الفقراء.. وهو رغم كل ما وصل إليه لا تزال الحكومة تعتبره من الفقراء.. واستطاع بذكائه ولباقته أن يقنع الحاج محمود المرجوشي بأن يسعى لتخصيص شقة له في البيوت الشعبية التي أقيمت في حي الدراسة.. غرفتان وصالة بايجار ثلاثة جنيات ونصف شهريا.. وتصبح ملكا له بعد عشرين عاما.. ولكن أمه وأباه يرفضان أن يتركا

الزقاق.. ليس في الدنيا حياة خارج هذا الزقاق.. واضطر أن ينتقل إلى حي الدراسة مع زوجته وحدهما..

وبدأ يعيش الحياة كما يصورها مدى خياله.. إن شقته مجهزة بكل قطع الأثاث التي كان يراها من بعيد.. وهو ينام هو وزوجته على سرير عال بعد أن عاش العمر ينام على الأرض.. ولم يعد يعود إلى البيت كل مساء إلا بلفافة تجمع الفاكهة أو يحمل تحت إبطه بطيخة.. فزوجته تطبخ كل يوم.. بل إن أول ما حرص على امتلاكه هو جهاز الراديو.. وقد عود زوجته على أن تتركه مفتوحا طوال النهار وطوال الليل يطلق أعلى أصواته، حتى يتأكد الجيران من أنه أحد أفراد طبقة ملاك أجهزة الراديو..

وهو يصدم بأن أحلامه تكلفه أكثر مما كان يتصور.. إنه لم يكن يتصور كل هذه الأسعار التي يدفعها لما يشتريه.. ومرتبه من المؤسسة الحكومية يرتفع.. لقد وصل إلى أربعين جنيها.. ولكنه لا يزال في حاجة إلى أكثر.. وكل زملائه الموظفين لا يكفون عن المطالبة بأكثر.. ويستطيعون الوصول دائما -وهو معهم- إلى الأكثر.. ورغم ذلك فكلما ارتفع مرتبه يجد أن الحياة أصبحت أصعب!

وكان قد أنجب.. وأصبح أبا.. منحه الله ابنتين ثم جاد عليه بحلمه الأكبر وأنجب ولدا.. أسماه محمودا تبركا باسم الحاج محمود المرجوشي.. وهو يريد أن يحيط ابنه بكل ما حرم منه.. أدخله مدرسة الأطفال

بمجرد أن بدأ يعي حتى لا يكون مثله جاهلا لا يكتب ولا يقرأ.. ثم لفت نظره وهو في الحي أن بعض أطفال الحي يركبون دراجات.. فلماذا لا يركب ابنه دراجة.. وأن يملك دراجة؟!.. ولكنه وجد أنه في حاجة إلى ثمانين جنيها ليشتري دراجة صغيرة.. ومرتبه لا يكاد يغطي مطالب حياة العائلة.. ثم إنه كان يعلم في أيام صباه أن الدراجات تؤجر بقروش ليلهو بها الأطفال.. ولكن الدراجات لم تعد تؤجر وكل الناس يشترونها لأطفالهم.. وبدأ يبحث عن عمل يضاف إليه حتى يدر عليه دخلا آخر.. وكان قد استطاع أن يكتسب عطف كثير من كبار موظفي المؤسسة التي يعمل بها.. واستطاع أن يصل إلى القيام بخدمات لهم نظير ما يجودون عليه به.. إنه خادم.. يجيد القيام بخدمة أي عائلة وأي بيت.. ثم إن الحاج محمود المرجوشي كان قد أثرى وارتفع سؤدده وأصبح يجمع أكثر من خادم في بيته، فترك له القدرة على أن يقوم بخدمات بيوت أخرى دون أن ينقصه شيء.. يتردد على كل بيت ثلاث مرات في الأسبوع.. كل مرة يقضي ساعات ثم ينتقل إلى بيت آخر.. وهكذا حقق زيادة في الكسب واستطاع أن يشتري دراجة لابنه..

لقد ارتفع كسبه عن الطريق الوحيد الذي يؤمن به.. طريق العمل الشريف النظيف.. وكلما عمل أكثر كسب أكثر..

ولكنه عاد يوما إلى البيت فوجد ابنه يبكي بكل دموعه وبكل صراخه.. وعرف الحكاية.. إن ابنه كان في بيت صديقه عليوة المقيم في الشقة المجاورة.. وكان يتفرج معه على التليفزيون.. ولكنه تشاجر معه فطرد عليوة ابنه وحرمه من الفرجة على التليفزيون!..

إنه لا يملك جهاز تليفزيون..

ويجب أن يشتري تليفزيون حتى لا يكون ابنه أقل من أبناء الجيران..

وسعى بحثا في الأسواق.. وجد أن أقل جهاز تليفزيون لا يقل ثمنه عن خمسمائة جنيه.. إنه لا يملك كل هذا المبلغ دفعة واحدة، فكيف يحصل عليه؟!.. ولم يكن أمامه إلا طريق الاقتراض.. وقد اختار أن يقترض من أصحاب البيوت التي يعمل لديهم.. خصما من المكافآت التي يجودون بها عليه.. وهو يعد بأن يقدم خدماته خصما من الدين.. واستطاع أن يجمع الخمسمائة جنيه واشترى لابنه التليفزيون..

ولكن ابنه ظل دقائق أمام شاشة التليفزيون ثم انهار في البكاء.. إن التليفزيون الذي يملكه جاره عليوة هو تليفزيون ملون.. وقد انتظر طويلا حتى تظهر الألوان في التليفزيون الذي اشتراه أبوه فلم تظهر.. وبدأ يبكي..

وعوض الله لا يستطيع أن يحتمل أن يكون ابنه أقل متعة بالحياة من أولاد الجيران.. وبدأ يقنع نفسه بأن يبدل التليفزيون الذي اشتراه بتليفزيون يطلق الألوان.. ولكن الثمن غال.. لا يقل عن ألف جنيه.. وبدأ يحاول أن

يوفر من نفقات البيت ويضن على زوجته بكثير مما تطلبه.. ثم سعى إلى أن اقترض أكثر.. إلى أن استطاع أن يضع أمام ابنه جهازا تليفزيونيا يعرض الصور الملونة..

وهو يستنزف كل طاقته في العمل حتى يجمع ما يكفي نفقات الحياة وسداد الديون.. إنه يعمل موظفا في المؤسسة.. وخادما في بيت الحاج محمود المرجوشي.. وخادما يتنقل بين أكثر من خمسة بيوت..ويكاد ينهار ويقع عاجزا عن حمل كل هذا العبء.. ولكنه يحس برضاء عن النفس يستمد به القدرة على التحمل.. وابنه في منتهى السعادة.. وقد عادت صداقته بعليوة ابن الجيران.. صداقة تجمع بين مستوى واحد من متع الحياة. ابنه يذهب إلى عليوة ليزامله أمام شاشة التليفزيون.. وعليوة يأتي إليه ليزامله أمام التليفزيون..

إلى أن عاد يوما إلى البيت ووجد ابنه يبكي في حرقة.. إن والد عليوة اشترى له جهاز فيديو يعرض عليه أفلاما كاملة من الأفلام المثيرة.. وقد بدأ ابنه يشاهد هذه الأفلام مع عليوة إلى أن تشاجر معه وطرده عليوة من أمام الفيديو!..

ولم يكن عوض الله قد سمع عن هذا الفيديو.. وعندما بدأ يبحث عنه حتى يرفع ابنه إليه فوجئ بأن ثمنه لا يقل عن ألف وخمسمائة جنيه للجهاز الواحد.. علاوة على ثمن إيجار الأفلام السينمائية التي تعرض

عليه.. هذا مستحيل.. إنه لا يستطيع أن يعمل أكثر ليحصل على كسب أكثر.. بل لن يستطيع أن يقترض أكثر مهما بلغ عطف السادة عليه.. لقد وصل مرتبه إلى ثمانين جنيها في الشهر ويكسب علاوة عليه حوالي خمسين جنيها في الشهر.. أي أن دخله الشهري وصل إلى أكثر من مائة وثلاثين جنيها في الشهر.. ورغم ذلك لا يستطيع أن يشتري فيديو.. ودموع ابنه لا تزال تنزف داخل عقله وداخل قلبه!..

وتجرأ وذهب إلى لقاء الحاج محمود المرجوشي.. إنه الآن من أبرز الشخصيات في مصر كلها.. وروى له الحكاية كما هي.. إن ابنه يبكي لأنه محروم من جهاز الفيديو.. وهو في حاجة إلى ألف وخمسمائة جنيه ليشتريه له.. لابنه وحده.. ليس لنفسه ولا لزوجته ولا لابنته.. حرام أن يترك ابنه يبكي طول العمر.. وكان يأمل أن يستجيب الحاج له ويحقق ما يطلبه عرفانا بالعمر الطويل الذي قضاه في خدمته.. ولكن الحاج محمود صاح في وجهه كأنه كعادته يعلن مشيئة الله سبحانه وتعالى:

- إني لم أشتر لأولادي فيديو.. إنه أقوى سلاح يسلطه الشيطان على الأولاد حتى يلهيهم عن القيام بواجباتهم.. يكفي أن تضع الفيديو أمام الصبي حتى يفقد إحساسه بأمه وأبيه وبالمدرسة وبالمجتمع كله، بل ويفقد إحساسه بالله.. ينسى حتى نفسه ويعيش في العالم الآخر الذي يشده إليه الفيديو!..

وابتعد عوض الله يائسا.. ربما كان الحاج محمود المرجوشي على حق.. ولكن عوض الله لا يستطيع أن ينسى دموع ابنه..

ووجد نفسه يتساءل: كيف استطاع أبو عليوة أن يشتري جهاز الفيديو؟!.. إنه مثله.. عامل موظف في إحدى المؤسسات الحكومية.. ويقيم معه في المساكن الشعبية.. ولا يمكن أن يكون مرتبه أعلى كثيرا حتى يستطيع أن يشتري فيديو.. لا شك أنه يعمل عملا آخر يفيض عليه بكسب هائل.. ترى ماذا يعمل؟

إنه تربطه بأبي عليوة صداقة جيرة هادئة.. كل منهما مطمئن إلى الآخر.. وزوجة كل منهما مرتبطة مع الأخرى في دردشة لا تتوقف أبدا بينهما..ووجد نفسه جالسا معه يسأله:

- كيف استطعت أن تشتري الفيديو.. إنه غال.. ألف وخمسمائة جنيه؟!..

وقال أبو عليوة ضاحكا كأنه يتفاخر بعزه:

- الفيديو أغلى يا عوض الله.. لقد دفعت فيه ألفين وثلثمائة جنيه.. بالتمام والكمال..

وشهق عوض الله مصدوما وقال:

- وكيف أستطيع أن أصل إليه.. إن ابني سيموت إن لم أشتر له فيديو..

وقال أبو عليوة وكأنه يشفق عليه:

- ابحث عن الرزق يا عوض الله.. إن الوظيفة لا تدفع ما يكفي حتى لشراء قطعة بسبوسة..

وصاح عوض الله:

- أنت تعلم أني أعمل طوال النهار والليل بعيدا عن الوظيفة.. ورغم ذلك لا أستطيع أن أجمع ثمن الفيديو حتى أشتريه لابني..

وغطى الإشفاق عيني أبو عليوة وتلفت حوله كأنه يطمئن إلى عدم وجود غريب، ثم مال على عوض الله وهمس قائلا:

- هل تستطيع التوزيع؟

وقال عوض الله في لهفة:

- توزيع ماذا؟!

وعاد أبو عليوة يهمس:

- توزيع الكيف!..

وفهم عوض توا ما يقصد أبو عليوة.. إنه يقصد توزيع الحشيش أو الكوكايين أو الحبوب.. وهز رأسه مستغفرا الله قائلا:

- ده حرام..

وصاح أبو عليوة:

- من قال إنه حرام.. الله لا يحرم خلقه من متعة الكيف.. وإلا كان القرآن قد نص على تحريمه.. إن القرآن لم يحرم إلا الخمر.. وأنت لن توزع خمرا.. وقد كان المسلمون منذ يولدون وأمهاتهم تملأ أفواههم بحبات الخشخاش حتى يتذوقوا متعة الكيف، ويكفوا عن الصراخ الذي تطلقه الحياة ويناموا في هدوء.. ولكن الإنجليز حرموا الخشخاش لأنهم لا يزرعونه ولا

يتاجرون فيه.. لقد كانت المنافسة عنيفة في السوق بين السكارى والحشاشين.. ولأن الإنجليز هم الذين يبيعون الويسكي الأسكوتش فقد فتحوا له السوق حتى آخرها وسلطوا البوليس ليطردوا الحشيش.. وحتى بعد خروج الإنجليز من بلدنا
لا تزال الحكومة تحرم الكيف.. ولكن الكيف أقوى من الحكومة.. ولن يحرم الخلق أبدا منه..

وضحك أبو عليوة ساخرا واستطرد قائلا:

- الأمريكان حرموا الخمر يوما، ولكنهم عجزوا عن مواجهة الناس فعادوا وأباحوا الخمر.. لأن الله لا يحرمها على المسيحيين.. ونحن سرنا على العكس.. فقدأبحنا الخمر رغم أن الله يحرمها على المسلمين.. وحرمنا الكيف الذي لم ينص كتاب الله على تحريمه على المسلمين.. والمسلمون ليسوا ملكا للحكومة ولكنهم ملك لله.. لذلك ظلوا يعيشون طائعين له سبحانه وتعالى.. ومن يدري؟!.. ربما جاء يوم تستجيب فيه الحكومة أيضا لأوامر الله وتترك الناس أحرارا فيما لا يحرمه القرآن..

وهَمّ عوض الله أن يتكلم:

ولكن..

وقاطعه أبو عليوة ناهرا:

- توزع أم لا توزع؟

وأحنى عوض الله رأسه ساهما مهموما.. إنه لا يزال مقتنعا بأن توزيع الكيف حرام.. ولكن دموع ابنه يشتد

نزيفها في عقله وقلبه.. وقال في صوت محشرج:

- أوزع!..

وقال أبو عليوة:

- سأناولك دفعة لو وزعتها فستخرج منها بخمسمائة جنيه.. حلال عليك.. ودفعة وراء دفعة تستطيع أن تشتري الفيديو.. بل إنك لو وزعت أكثر تستطيع أن تساهم معي في شراء سيارات التاكسي.. ولكن خذها نصيحة مني.. مهما فتح الله عليك فلا تنتقل من سكنك.. ولا حتى تغير جلبابك..الله أمر بالستر..

وبدأ عوض الله يوزع لفافات الكيف ويقبض الثمن.. وقد بدأ التوزيع وهو متردد مهموم يستغفر الله.. ولكنه أخذ يجيد مهمته كعادته كلما أقدم على عمل.. وفي أسابيع تجمع لديه ثمن الفيديو واشتراه لابنه وأصبح في كل يوم يشتري له فيلما جديدا.. وكفت دموع ابنه وعادت الصداقة تجمعه مع عليوة ويقضيان اليوم كله أمام الفيديو حتى يناما وهما لا يزالان أمامه..

وفوجئ يوما بالبوليس يقتحم عليه مسكنه ويقبض عليه..

وحاول أن يتخلص من يد البوليس ليحيي ابنه.. ولكن ابنه جالس أمام الفيديو ولا يحس بما يجري له!..

واستسلم للبوليس في هدوء.. إنه على الأقل سيترك ابنه دون أن ينقصه شيء!..

* * *

هل تبادلني؟

لقد جمعتهما الحياة وجها لوجه منذ شبابيهما، ورغم ذلك فالتباعد بينهما يشمل كل نواحي الحياة.. تباعدا شاسعا كأن لكل منهما دنياه التي لا يدخلها الآخر..

كان كريم صلاح الدين منذ شبابه وهو شخصية لها بريق في كل مجتمع يحيط به..

وربما كان بريقه ينطلق أساسا من وسامته.. فوجهه صورة رائعة كأن الفنان الأعلى قد خط فيه أرقى خطوط جمال الرجولة.. وقوامه منسق يفرض جاذبيته.. ليست جاذبية القوة التي تدفع إلى الاستعانة بها.. أو إلى تجنب اعتداءاتها.. ولكنها جاذبية جمال الاتساق..

وبريقه ينطلق أيضا من جرأته العجيبة وصراحته المتناهية في إبداء رأيه وفي اتخاذ كل قراراته وتصرفاته.. إنه لا يحس أن في الحياة ما يمكن أن يضطره إلى تحديد جرأته وصراحته، أو إلى افتعال النفاق، أو حتى مجرد المجاملة.. إنها دنياه وليس لأحد دخل فيها..

ولا شك أن هذه الشخصية لا ينقصها الذكاء.. ولكنه ذكاء ينحصر في تحقيق ما يريده هو ما لا يريده الناس أو ما يقدرونه للحكم على بعضهم بعضا.. فالناس مثلا تقدر أن الطالب الأعلى والأرقى الذي يستحق منتهى الإشادة به هو الطالب الذي يكون ترتيبه الأول بين كل زملائه في أي امتحان.. وهو واثق أنه يستطيع أن يكون

الأول.. ولكنه لا يريد.. ولا يحس بأي دافع يدفعه إلى تعمد الحصول على درجات ترتفع به إلى القمة.. إن كل ما يريده هو أن ينجح في أي امتحان.. لأنه يأبى أن يعرض نفسه لأي سقوط.. وكان ينجح دائما.. ولم يكن الأول أبدا.. لمجرد أنه لا يريد..

وربما كان من أبرز ما في شخصية كريم هو جاذبيته للجنس الآخر.. فمنذ صباه وكل بنت تراه تتمناه لنفسها أو على الأقل تتمنى أن تتذوقه.. وهو قد تعود على انهيار الجنس الآخر أمامه وعلى محاولتهن الوصول إليه.. وكان يتعامل معهن في تعال كأنه يشفق عليهن.. لا لأنه مغرور بنفسه وبقوة جاذبيته.. ولكن لمجرد أنهن يردن منه ما لا يريده منهن.. وكانت شفقته تدفعه أحيانا إلى الاستجابة دون أي دافع خاص.. بل حدث أن كان يتجاوب أحيانا دون مجرد تبادل الإعجاب.. كأن تتمناه فتاة قبيحة ليس فيها أي عنصر من عناصر الإغراء ولكنه يشفق عليها ويتركها تتذوقه دون أن يحس بطعم ما يتذوقه منها.. مجرد إشفاق كأنه يوزع نفسه زكاة عما خصه الله به من قوة جاذبية.. حتى لو مر به عنصر الإعجاب بجمال أو بشكل فتاة رآها، فإنه يكتفي بالرد على نظراتها بابتسامة مغرية يعلقها على شفتيه وبعدها تكون معه أو تسعى إليه خلال التليفون..

ولم يدم أي إعجاب أبدا.. كان يستمر أياما أو أسابيع ثم ينتهي كأن كلا منهما قد اكتفى بما أخذه من الآخر وأشبع إعجابه به.. أي لم يصل به أي إعجاب إلى درجة

الحب.. إن الحب يعني حياة مشتركة بين رجل وامرأة.. وحياته لم تتسع حتى اليوم لتضم أي شريك.. إنها حياة وحده.. وقد وصل الآن إلى سن الخامسة والثلاثين دون أن يتزوج أو تطرأ على خياله صورة أي زواج.. إنه لا يحس أن حياته ينقصها شيء يمكن أن يتم بالزواج..

وهو في كل علاقاته بالجنس الآخر.. أي بأي فتاة أو أى امرأة.. لا يتعمد أن تكون علاقة خفية لا يعلنها على الناس ويحتفظ بها كسر اجتماعي.. لماذا يخفي؟!.. إنه لا يعتدي ولا يكذب ولا يضلل.. إنها علاقة بإرادة الطرفين.. وفي حدود ما يريده كل طرف.. ومن حق المجتمع أن يعرف ما يريده كل فرد.. ومن حق الفرد أن يعلن ما أراده.. ما دام لا يعتدي على حق.. ولم يكن يعلن عن علاقاته بالكلام أبدا.. فهو لا يتحدث أبدا عن حياته الخاصة ما دام ليس من حق أحد أن يحاسبه عليها.. ولكن يعلن هذه الحياة بمظاهرها.. فقد يسير مع فتاة في الشارع ليراه معها كل الناس.. أو يذهب معها إلى عرض مسرحي أو سينمائي.. أو يجلس بصحبتها في مقهى عام أو في أحد أبهاء الفنادق الكبرى.. وهو ما جعل الأحاديث عنه تتردد وتشاع وتصل إلى اتهامه بأنه زئر نساء منحل.. وكل عائلة تحذر بناتها منه.. إنه يأخذ البنت ثم يرميها ولن يتزوج أبدا..

ورغم كل ما فيه من إغراءات فلا يمكن أن يتعلق به أي أمل.. وهو يسمع كل هذا الكلام ولا يهتم به ولا يحاول أن يقبض على نفسه ويغير من شخصيته.. إنه

ليس زئر نساء.. ولكنه زئر يغري كل امرأة بأن تروي منه عطشها.. والزئر لا يشد يد من تقبل عليه ولكنه لا يبخل عليها بأن تطفئ عطشها ولو بجرعة واحدة تتذوقها.. وهو لا يعد أبدا بالزواج.. لا يريد أن تنفرد بنت بإطفاء عطشها بالاستيلاء على الزئر.. يكفيها جرعة أو جرعتان!..

كانت هذه شخصية كريم صلاح الدين..

والشخصية الأخرى التي واجهته طول حياته ومنذ كان طالبا في المدرسة الثانوية هي شخصية محمود البسيوني.. وهي شخصية ليس لها أي بريق اجتماعي.. إن محمود ليس له وسامة تحقق أي اجتذاب.. وبالعكس.. قد تكون غرابة منظره وشكله هي التي تجذب العيون إليه اجتذاب الدهشة والغرابة!.. فهو قصير رفيع كأن جلده ملتف حول عظمه.. أو كأنه بقايا عود القصب الذي مص وألقي ما بقي منه في جانب من الرصيف.. ثم إن وجهه طويل بشكل غير طبيعي.. حتى يخيل إليك أن المسافة بين ذقنه وقمة رأسه توازي طول قوام جسده.. وتفاصيل ملامح وجهه غريبة.. ففمه متسع جدا.. وأنفه صغير جدا.. وعيناه ضيقتان جدا.. وجبينه مرتفع جدا.. ورأسه ضخم يحمل خيوطا من الشعر ناشفة قصيرة جدا..

وربما كان محمود يشعر منذ البداية بغرابة شكله ويعرف أنه ليس وسيما ولا جذابا.. وأنه يبدو كنتوء اجتماعي يجب إزالته استكمالا لجمال الدنيا.. ولعل هذا

هو ما كان يدفعه منذ البداية بإبراز شخصية فيها ما يجذب الناس إليه ويرحمونه من التفكير في حرمانه من الوجود.. وكانت الشخصية التي اختار إبرازها تعتمد على التفوق في العلم.. وفرض الاعتراف بعبقرية عقله ما دام لا يمكن الاعتراف بوسامة شكله.. وقد استطاع أن يكون ترتيبه الأول بين الناجحين من زملائه في كل امتحان.. وللأول على الناجحين شخصية تميزه اجتماعيا حتى وإن كان تمييزا لا يستمر إلا فترة ظهور نتائج الامتحان.. وكان بجانب هذا يميز نفسه بالتقرب إلى المدرسين والأساتذة.. يقدم نفسه إليهم كطالب متفرغ للعلم.. وليس له من كل ما في الدنيا إلا العلم.. بل كان يحرص على حضور كل المحاضرات والندوات العلمية منذ بداية شبابه ويشترك في بعضها بتقديم أبحاث ودراسات..

إنه المجال الوحيد الذي لا تقاس فيه قيمته بوسامته.. فهو مجال لا تبدو فيه أي قيمة إلا قيمة العقل وقيمة المجهود العلمي الدراسي الذي يتقدم به.. والسعي إلى هذا التميز كان يدفعه إلى الحرص على أن يقدم دائما للمجتمع شخصية هادئة مهذبة.. مستسلمة.. كأنها شخصية عالم من العلماء لا يعيش شيئا من مظاهر الحياة ولكنه يعيش العلم وحده.. حتى عندما كانت تطلق في وجهه كلمة تمسه أو نكتة تثير الضحك عليه، كان يقابلها في هدوء وابتسام دون أن يدافع عن نفسه أو يرد بما يصون كرامته.. ويبتعد مبتسما كأنه يهرب

من معركة وينافق المستهينين به.. وقد عود نفسه من صغره على النفاق.. ينافق كل من يحتاج إليهم.. ولو كان لا يحتاج إلى أكثر من كلمة من أي واحد منهم، وقد يصل به النفاق إلى حد بذل مجهود في تقديم خدمات دراسية ليست مفروضة عليه.. وقد استطاع بهذا النفاق أن يكتسب أغلبية المدرسين والأساتذة في كل سنوات الدراسة.. وأن يكتسب أغلبية من زملائه الطلبة بقبوله بينهم.. إن النفاق هو السلاح الذي يجتاز به كل حياته إلى اليوم..

وكل هذه المميزات التي يلجأ إليها محمود البسيوني تتناقض مع واقع إحساسه وطبيعته.. إنه واقعيا يتعذب في داخله بالسخط وبالحقد على كل الدنيا وبالغيرة من كل الناس.. بل إنه يحقد على الله نفسه سبحانه وتعالى!.. لماذا خلقه الله بهذا الشكل المنفر الغريب؟!.. لماذا لم يمنحه الله مثل هذه الوسامة التي خلق بها كريم صلاح الدين؟!.. ولماذا لا يستطيع اجتذاب المرأة كما يجتذبها كريم؟!.. إنه حتى اليوم لم يجتذب أي أنثى.. بل إنه فقد ثقته في نفسه إلى حد اليأس فلا يحاول أبدا من ناحيته أن يجتذب أي واحدة.. رغم كثرة من مر بهن وأثرن في نفسه أمنية لقاء وأمنية اللمس.. ولو كانت مجرد لمسات تتحسس بها أصابعه نواحي من جسدها.. أمنية تنغرز في صدره كأنها خنجر يدميه بالحرمان واليأس من حق التعلق بأي أمل..

وكان الحقد الأكبر الذي يثور في صدره كالبركان هو حقده على كريم صلاح الدين.. هذه الشخصية ذات البريق.. ورغم قدرته على أن يخفي حقده وسخطه وراء افتعاله الهدوء المهذب والطيبة المستسلمة، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يخفي حقده على كريم فكان يهرب منه.. ويكتفي بالصدفة ليحييه من بعيد باعتباره زميله في الدراسة.. ويفرح في دخيلة نفسه كلما انتصر على هذه الشخصية ذات البريق في لحظات يتردد فيها اسمه بظهور نتائج الامتحان.. أو في إحدى الندوات العلمية.. لحظات يتردد فيها اسمه أكثر مما يتردد اسم كريم ويبرق إلى أعلى من بريقه.. وإن كانت لحظات لا تلبث أن تنتهي ويعود كريم منفردا ببريقه..

وكان كريم من ناحيته لا يهتم بتباعد محمود البسيوني عنه..

ولا يحاول أبدا أن يتقرب إليه.. ويحس كلما رآه كأنه يشفق عليه.. يشفق عليه من منظره وملامحه الغريبة.. ويشفق عليه من تماديه في التواضع والهدوء والاستسلام..

والسنوات تجمعهما دائما في مجال واحد..

كانا معا طلبة في المدرسة الثانوية.. ثم كانا معا في الجامعة وفي كلية واحدة وتخصص واحد.. ثم بعد تخرجهما من الجامعة وجدا نفسيهما موظفين في مؤسسة واحدة.. وكل منهما أصبح يحس بأنه مرتبط بالآخر ارتباط العمر، ورغم ذلك فالتباعد مستمر بينهما..

ولا يربطهما، سوى تبادل التحية من بعيد.. وإن كان كل منهما يعرف عن الآخر الكثير.. وما يعرفه محمود البسيوني عن كريم.. يفوق كثيرا ما يعرفه كريم عن محمود.. وكان أهم ما يحاول محمود جمعه من معرفة هو قصص مغامرات كريم النسائية.. ويزداد حقدا عليه مع كل قصة!..

وقد كان كريم موظفا محترما في المؤسسة.. حريص في أداء عمله بعقلية الخبير المقدر لمسئوليته.. ولكنه لم يكن يبذل أي مجهود خارج ما يعهد إليه من عمل.. لا يسعى إلى الوصول إلى درجة وظيفية أعلى.. ولا يحاول التقرب من رؤسائه.. ولا ينافق.. بل إن جرأته وصراحته تدفعه إلى إثارة أزمات بينه وبين المسئولين عنه.. في حين كان محمود البسيوني بجانب حرصه على النجاح في كل عمل يعهد إليه متفرغا في الوقت نفسه للتقرب من الرؤساء.. والاستسلام لهم.. والسكوت على أخطائهم.. بل وأداء كل ما يطلبونه من خدمات خارج ما يتطلبه العمل..

والرؤساء لا يمنحون ثقتهم لكريم صلاح الدين.. ويعتبرونه كأنه مغرور بنفسه.. ربما كان متعاليا عليهم بوسامته وبريقه الاجتماعي.. ولكنهم يحيطون محمود البسيوني بكل ثقتهم ومنتهى الاعتماد عليه.. إنه موظف مطيع مهذب حريص على تنفيذ كل الأوامر..

لذلك ارتقى محمود درجات الوظيفة بسرعة مذهلة.. بينما

لا ينال كريم إلا ما ينص عليه الروتين من ترقية.. ومحمود يفرح ويزداد استكمالا لنقص شخصيته كلما ارتقى إلى مركز أعلى..وكريم لا يهمه إن كان قد ارتقى أو لم يرتق.. فحياته وشخصيته لا تقوم على قياس درجة وظيفته..

إلى أن أصبح محمود البسيوني رئيسا لمجلس الإدارة.. وكريم لا يزال رئيسا لأحد أقسام المؤسسة.. واحد من كثير من رؤساء الأقسام.. وكان من أول الأوامر التي أصدرها محمود.. رئيس مجلس الإدارة الجديد.. هو أمر بعزل كريم صلاح الدين عن رئاسة القسم وركنه في أحد الأقسام المهملة.. إنه لا يزال يعاني الحقد عليه الذي ينغرز في صدره ويدميه.. وكريم تلقى الأمر بابتسامة ساخرة.. إن حياته لا تحددها وظيفته.. وهو لا يخسر شيئا.. بل يرتاح من عبء.. والمؤسسة هي التي تخسر ما كانت تكلفه به من جهد كرئيس لقسم من أقسامها!..

***

إلى أن كان يوم..

وكانت جيهان قد دخلت حياة كريم منذ أسابيع.. إنها رائعة الجمال.. وجمالها من النوع الذي يفرض احترامه.. ولا يثيرك إلى حد التفكير في نهمه والتهامه.. ولا يتركك تنصرف عنه.. وكأنه يقبض عليك في هدوء وأدب.. وربما كان قد أغراها بريق كريم ووسامته لتعرض نفسها عليه.. ولكنه عرض لا يمكن أن يحقق أي

هدف إلا بعد الزواج الشرعي.. وكريم يرحب بأي عرض ولكنه لا يصل به أبدا إلى الزواج.. إنه الآن في الخامسة والثلاثين من عمره ولم تدفعه أي امرأة إلى مجرد التفكير في الزواج، رغم العدد الكبير الذي دخل حياته منهن..

وقد بدأت جيهان ترحب بدعوات كريم للخروج بها إلى الشارع كما تعود دائما مع كل النساء.. إنه لا يريد أن يكون ما بينه وبين أي امرأة سرا يخفيه ما د ام كل شيء يتم بإرادة كليهما.. وقد كانت جيهان تقبل دعوته اقتناعا منها أن ازدحام عيون الناس حولهما سيدفعه حتما إلى الزواج حتى يسكت القيل والقال.. بينما كريم كان يدعوها بدافع آخر يقوم على أن معاشرتها علنيا قد يدفعها إلى مزيد من العطاء إلى أن تستسلم..

وكان قد دعاها يوما إلى الغداء في أحد الفنادق الكبرى.. وما كاد يجلس بها على مائدة حتى رأى قبالته مائدة مزدحمة تجمع عددا من المسئولين عن إدارة مؤسسته، ومن بينهم محمود البسيوني رئيس مجلس الإدارة.. وأدار له رأسه ليحييه من بعيد كما هي عادته.. ولكنه وجد محمود لا ينظر إليه بل ينظر بعينين مبحلقتين في وجه جيهان.. وتعجب كريم.. وعاد بعد برهة والتفت إليه ليحييه.. فإذا به يجده وهو لا يزال مبحلقا في وجه جيهان.. ثم مرة ثالثة.. وهو لا يزال مبحلقا في وجه جيهان.. حتى أنها قالت:

- إن هذا الرجل لا يرخي عينيه عني..غريبة!!

وانتهى اجتماع المسئولين حول مائدة الغداء.. وهموا بالانصراف.. وإذا بمحمود البسيوني يخطو مقتربا من كريم.. وهب كريم واقفا وابتعد عن مائدته وعن جيهان ليحييه.. ومد له محمود يده مصافحا في حرارة.. وقال فورا دون أن يقرئه السلام وابتسامة كبيرة تهتز فوق شفتيه الواسعتين جدا:

- تبادلني؟

وقال كريم وهو يبتسم له هو الآخر ابتسامة تزين وجهه الوسيم:

- أبادلك على ماذا؟

وقال محمود في عجلة:

- تأخذ أنت رئاسة مجلس الإدارة وآخذ أنا المرأة التي معك!..

وقال كريم ضاحكا ضحكة كبيرة:

- ياريت..

لقد اعتبر كريم أنها نكتة يطلقها عليه محمود.. وهي أول نكتة يسمعها منه.. بل إن المعروف عن محمود أنه لم يطلق في حياته كلها أي نكتة.. وربما لذلك كانت النكتة سخيفة تافهة، وإن كان قد تعمد أن يضحك لها مجاملة له.. رغم أنه ليس من عادته أن يجامل حتى ولا رئيس مجلس الإدارة!..

وابتعد محمود عنه خارجا من الفندق بعد أن ألقى نظرة أخرى يبحلق بها في وجه جيهان..

وفي صباح اليوم التالي فوجئ كريم بسكرتير رئيس مجلس الإدارة يأتي إليه ويدعوه إلى مقابلة الرئيس فورا.. وذهب إليه كريم وهو في دهشة.. إن محمود منذ تولى رئاسة مجلس الإدارة لم يقابله ولم يطلب هذه المقابلة ولا مرة.. ودخل عليه وفي عينيه تساؤل لحوح.. وقال له محمود بعد أن وقف له محييا على غير عادة رؤساء مجلس الإدارة:

- إني لا أريد أن ألف وأدور.. ولكني سأدخل في الموضوع مباشرة.. وقد عرضت عليك بالأمس أن تبادلني منصب رئيس مجلس الإدارة بمن كانت معك.. وأنا جاد في هذا العرض!..

وقال كريم في دهشة:

- ولكن.. لماذا؟

وقال محمود في بساطة:

- لا أدري لماذا؟!.. و لكني وقعت في أمنية لا أستطيع مقاومتها.. وهي أن تكون لي هذه المرأة.. وقدرت أني لا أستطيع الوصول إليها إلا بتعويضك عنها بأغلى ما بين يدي!..

وقال كريم وقد بدأت السخرية تشوب دهشته:

- إلى هذا الحد تريدها!.. إلى حد أن تضحي بمنصبك وتعيش ضائعا!..

وقال محمود في لهجة مطمئنة:

- لن أضيع.. إن كل الشركات الأجنبية التي نتعامل معها تلح على أن تأخذني معها لأشرف على أعمالها..

وقال كريم مذهولا:

- هل معنى ذلك أنك تريد أن تتزوج جيهان؟!

وقال محمود وهو يبتسم في راحة:

- اسمها جيهان.. لقد قضيت كل الساعات منذ رأيتها وأنا أبحث لها عن اسم.. واسم جيهان يليق عليها.. ولا أدري ماذا سيكون نصيبي منها.. حتى أقرر مسبقا أن أتزوجها.. يكفي أولا أن نلتقي..

وقال كريم وهو يطوف بعينيه يستعرض شكل محمود، وهو يحس كأنه أخطأ بذكر اسم جيهان كأنه مَنَّ عليه بما لا يستحقه:

- إني لست مرتبطا بها ولا هي مرتبطة بي.. حتى أستطيع أن أفرض عليها أي شيء ولو مجرد معرفة ولقاء صديق من أصدقائي.. أنا وهي ما زلنا في البداية..

وقال محمود وفمه يتسع كأنه يلتهم أنفه الصغير:

- إني متأكد أنك تستطيع على الأقل أن تجمعنا في جلسة..

وقال كريم وهو يبتسم ابتسامة ساخرة كأنه قرر أن يعيش في نكتة غريبة طرأت عليه..مجرد نكتة:

- وكيف سيتم هذا التبادل بيننا؟!

وقال محمود في هدوء حزين كأنه يستسلم لحكم القدر:

- لقد حسبت حساب كل شيء.. إنك بمجرد أن تجمعني بجيهان.. سأرفعك إلى منصب نائب رئيس مجلس الإدارة.. وهذا من حقي وما يخوله لي القانون..

وإني واثق أني لن أرفعك إلى هذا المنصب كمجرد اتفاق بيننا، ولكننا تزاملنا طول حياتنا وأعرف أن لك من المواهب الإدارية ما يمكن أن يحقق الخير للمؤسسة.. ثم بعد ذلك.. بعد أن تصبح جيهان لي وحدي فإني واثق من قدرتي على إقناع الجهات العليا بتعيينك رئيسا لمجلس الإدارة.. مكاني بعد أن أستقيل..

وكريم يستمع وهو لا يزال يطوف بعينيه بين ملامح محمود وشكله.. ولم يجادله في شيء مما يعرضه عليه.. وقام مبتعدا قائلا وهو يصافحه:

- سأفكر.. وأحاول..

وقال محمود كأنه يستجديه:

- إني واثق من فكرك.. ومن محاولاتك.. وقد عشت العمر كله وأنا أعتبرك قادرا على كل شيء.. حتى أني كنت أخشاك وأغار منك.. وآسف على ما كان بيننا فيما مضى.. فلم أكن أقدر أني سأصل يوما إلى الحاجة إليك.. وإلى هذا الحد.. صدقني إني في منتهى الحاجة إليك!..

***

وكريم حائر تهزه الدهشة وهو يحاول أن يفهم ما يطلبه منه محمود وما يعرضه عليه.. كيف يصل رجل إلى حد أن يبيع منصبه الذي يحدد كل كيانه وكل شخصيته ثمنا للوصول إلى امرأة.. وكان ما يعرفه عن محمود أنه لا تربطه أي علاقة بأي امرأة.. فقد كان شكله الغريب وقوامه القصير النحيل كعود القصب الممصوص

ينفر أي امرأة من أن تقترب منه.. ولا يزوده هو نفسه بالجراءة على الاقتراب من أي امرأة.. وربما بعد أن أصبح محمود موظفا كبيرا محترما معروفا قد قامت محاولات لإقناعه بالزواج..

ولكنه من الذكاء بحيث كان يقدر أن المرأة التي يمكن أن يتزوجها لن تتزوجه هو ولكنها ستتزوج منصبه.. ولن تكون له قيمة لديها إلا قيمة هذا المنصب.. لهذا فهو لم يتزوج حتى الآن رغم أنه هو الآخر وصل إلى الخامسة والثلاثين من عمره.. فما الذي يدفعه اليوم إلى استجدائه بأن يقدمه إلى جيهان؟!.. وإلى حد أن يعرض عليه أن يتنازل له عن منصبه كرئيس مجلس إدارة لو وصل به إليها.. إن جيهان امرأة جميلة ولكن محمود لا يعرف أنها تحترم جمالها إلى حد ألا تجازف به في سوق الجمال.. ولا يمكن أن تعطيه نظير منصب.. أو تبيعه لأحد الأغنياء..إنما تحتفظ به للرجل الذي تختاره.. وهي لا يمكن أن تختار محمودا!..

وأحس كريم بالإشفاق على محمود.. كما تعود أن يشفق عليه بسبب شكله الغريب المنفر.. ولكنه بجانب إشفاقه كانت تراوده ضحكة بينه وبين نفسه.. كأنه بدأ يقبل على نكتة مضحكة.. وقرر أن يعيش هذه النكتة حتى يصل إلى نهايتها!..

وكان على موعد للقاء جيهان في أحد الفنادق الكبرى.. فاتصل بها تليفونيا وقال لها إنه اكتشف أنه على موعد خاص مع الأستاذ محمود البسيوني رئيس

مجلس الإدارة.. فلتسمح له بأن يصحبها معه في لقائها.. ووافقت جيهان فورا.. ربما قدرت أن تقديم كريم لأصدقائه إليها يربطه بها أكثر..

ولاحظ كريم الدهشة التي تطل من عيني جيهان وهي ترى محمود البسيوني لأول مرة..إنها تنظر إليه من فوق لتحت كأنها تبحث فيه عن أي موضع يمكن أن تتقبله وتستريح إليه.. كما لاحظ أن محمود البسيوني يبتسم لجيهان وهو يلقى ابتسامة لم يرها على شفتيه من قبل.. إنه لا يبتسم إلا قليلا، ولكن هذه الابتسامة كأنها نوع جديد من الابتسامات هلّ عليه.. فهي ابتسامة لا تكشف عن كل فمه الواسع المنفر.. ولكنها ترفرف على شفتيه كأنها عصفور جميل.. وقد جرى الحديث بين الثلاثة في موضوعات عامة.. ولكن محمود بدأ يفيض بالكلام في صوت هادئ مريح عندما أثارت جيهان موضوع غلاء الأسعار.. كان كأنه يشرح واقع الحالة الاقتصادية من جميع جوانبها.. والمهم أن جيهان كانت تستمع إليه في تذوق كأنها ملهوفة إلى تلقي درس في الاقتصاد.. ولا يكاد يتوقف عن الكلام حتى تدفعه إلى مزيد منه بأسئلتها!..

وانتهى اللقاء وجيهان تصافح محمود في حرارة دون أن يشوب نظرتها أي دهشة، وكأنها لم تعد ترى فيه ما ينفرها إلى حد الدهشة..

وفي اليوم التالي مباشرة أصدر محمود البسيوني قراره بتعيين كريم صلاح الدين نائبا لرئيس مجلس

الإدارة.. وتلقى كريم القرار ضاحكا بينه وبين نفسه كأنه وصل إلى الفقرة الأولى من النكتة.. ولم يعترض أحد من المسئولين أو من موظفي المؤسسة.. فإنهم كلهم يشهدون لكريم بكفاءته وجدارته بالمنصب، وإن كانوا يعانون من تباعده عنهم وتعاليه على روتين الوظيفة.. ثم أن منصب «نائب الرئيس» ليس له أي قيمة يمكن أن تؤثر في إدارة المؤسسة.. إنه مجرد مظهر من مظاهر التكريم.. كأنه وسام من الدرجة الثانية..

وبعد يومين رفع كريم سماعة التليفون وقال لجيهان وهو يضحك:

- من أجل عينيك أصبحت نائبا لرئيس مجلس الإدارة..

ولم تضحك جيهان ولكنها قالت في فرحة:

- لقد اتصلت بمحمود بالتليفون لأستكمل معه الحديث.. إنه يجعلني أحس بأني تلميذة أستكمل دروسا تطلعني على أسرار الحياة..

وقال كريم في بساطة بلا اهتمام:

- ومتى أراك؟

وقالت في برود:

- اتصل بي بالتليفون.

وكانت المرة الأولى لا تحدد له جيهان موعد لقائها فورا كما عودته.. ولكنه لم يلح عليها.. إن وسامته وبريق شخصيته يرفعه عن مستوى الإلحاح على أي فتاة.. بل إنه تعمد أن تمر أيام دون أن يتصل بها حتى لا

يشعرها بأنه محتاج إليها.. إلى أن اتصلت به هي تليفونيا وقالت وهي منطلقة في فرحة كأنها اكتشفت عالما جديدا:

- لقد قابلت محمود.. وقد استفدت دروسا جديدة منه.. تصور.. لقد أقنعني بأني لو سافرت إلى لندن لأشتري ثياب الشتاء، فإن ذلك يكلفني أقل من لو اشتريتها من هنا بعد استيرادها..

وقال كريم في دهشة المفاجأة:

- وأين التقيتما؟!

وقالت جيهان في بساطة:

- في نفس حديقة الفندق التي سبق أن جمعتنا وتعرفت به فيها..

وقال كريم ساخرا:

- ولماذا لم أكن معكما ولم أدع إلى هذا اللقاء؟!

وقالت ضاحكة:

- إنك لست في حاجة إلى الدروس التي كنت أتلقاها منه..

ولم تطلب جيهان منه في حديثها أي لقاء.. ولم تحاول أن تتفق معه على موعد.. وظل متعاليا على أن يطلب هو لقاءها.. ومرت أيام طويلة دون أن تعود جيهان وتتصل به تليفونيا.. وكان يقنع نفسه بألا يهتم.. إنها مجرد امرأة تمر به كما تمر عشرات النساء.. لا يمكن أن يريد منها أكثر مما تريده، ولا أن يعطيها قبل أن تطلب.. إنه لم يشعر أبدا بما تعود عليه الناس من الحب

الذي يجمع بين الرجل والمرأة.. فهو لا يحب جيهان.. إنما فقط يتعامل معها في حدود ما تجذبه إليه.. ورغم ذلك فقد وجد نفسه يتصل بها بالتليفون.. وكل ما دفعه هو أن يعلم بما وصلت إليه مع محمود البسيوني.. وكان قد سبق له أن التقى بمحمود عدة مرات بحكم روتين العمل في المؤسسة.. و لكن محمودا لم يكن أبدا يحدثه عن جيهان.. وهو نفسه كان كأنه يترفع عن هذا الموضوع ولا يحدثه عنها.. كأنه موضوع مشين لكليهما..

وبمجرد أن سمعت جيهان صوت كريم في التليفون انطلقت قائلة وصوتها يرن بالفرحة:

- لقد كان محمود في زيارتنا بالأمس.. والتقى ببابا وماما وأخي..

وقال كريم في دهشة:

- بأي مناسبة كان في زيارتكم؟!

وقالت جيهان وكأنها تزغرد بصوتها:

-لقد كان يريد أن يعرفني أكثر.. كما أن عائلتي أرادت أن تعرفه من طول ما حدثتهم عنه..

وقال كريم كأنيه يريد أن يضع جيهان تحت الاختبار حتى لو تنازل عن تعاليه:

- ومتى أراك؟

وخفت صوت جيهان وإن كان لا يزال رقيقا وقالت:

- إني مزدحمة ومشغولة جدا هذه الأيام.. ثم إني لم أعد مقتنعة بأننا في حاجة إلى لقاء.. تكفي صداقتنا

التي يجب أن تستمر طول العمر.. حتى ولو صداقة بلا لقاء..

وقال كريم كأنه يصد هزيمة:

- لم يكن بيننا حتى اليوم سوى صداقة.. وإن كنا في انتظار أن تتطور إلى أكثر..

وقالت كأنها تنهي هذا الموضوع:

- انتظرني دائما في التليفون.. وسأنتظرك دائما في التليفون..

وكريم لا يستطيع أن يكتشف الأسباب التي دفعت جيهان إلى إنهاء محاولتها للوصول إليه.. والزواج به.. وهو لا يستطيع أن يعترض فهو لم يعطها ولم يعدها بما يمكن أن يقيد حريتها.. ثم أنه تعود على أن تهجره أي امرأة تيأس من إقناعه بأن يتزوجها.. ولكن ما كان بينه وبين جيهان لم يكن قد وصل بعد إلى حد اليأس..

إلى أن فوجئ بعد أيام ببطاقة دعوة لحضور زفاف جيهان عبدالرؤوف إلى محمود البسيوني.. وكانت مفاجأة عنيفة.. إنه لم يتصور أبدا أن يتم زواج بين جيهان ومحمود!.. كيف يمكن أن تتزوج امرأة في جمال جيهان من رجل في بشاعة وجه محمود؟!.. بل إن قوامها أطول من قوامه بشبرين!.. وقوام جيهان ممتلئ في روعة تثير الإغراء.. بينما قوام محمود نحيل ممصوص.. ثم إنه كان يقدر أن جيهان ليست من النساء اللاتي يتاجرن بجمالهن ورشاقتهن، فتبيع الواحدة منهن نفسها نظير منصب وصل إليه الرجل كمنصب رئيس

مجلس الإدارة الذي وصل إليه محمود.. فكيف جمع الزواج بين جيهان ومحمود؟!..

وبدأ خاطر جديد يطرأ على فكر كريم.. فإن هناك نوعا من الحب يجمع بين المتناقضات.. يجمع بين الجمال والقبح.. ويجمع بين الطول والقصر.. كما قد يجمع بين الذكاء والغباء.. تماما كما تعلق المرأة الجميلة على صدرها فاسوخة من طراد قبيح لتصد عن نفسها نظرات الحسد.. ولتحمي جمالها بإشغال نظرات الناس بشيء ليس جميلا.. أو كالرجل القبيح الذي يرتدي أجمل رباط عنق ويحلي صدره بأجمل زهرة يعلقها في عروة سترته، حتى يشغل الناس عن النظر إلى قبحه بمظاهر جميلة تحيط به. ولعل جيهان اختارت محمود البسيوني ليصد عنها حسد الناس لجمالها.. واختارها بسيوني ليزين بها نفسه تخفيفا عن قبحه..

وابتسم كريم بينه وبين نفسه.. لقد وعده محمود بأن يستقيل من منصب رئيس مجلس الإدارة ويتركه له إذا أصبحت جيهان له وحده.. ولا شك أن الزواج يحقق له أن تكون جيهان له وحده.. ولعل محمود يحقق وعده بعد أن يتم الزفاف.. لقد كان صادقا في وعوده بدليل أنه سبق أن عينه نائبا لرئيس مجلس الإدارة..

وحضر كريم حفل الزفاف.. وظل محتفظا بوسامته وبريقه بين باقي المدعوين.. ومن خلال ابتسامته الهادئة يرى جيهان وكأنها علقت فاسوخة على صدرها..

ويرى محمود البسيوني وكأنه علق وردة زاهية في عروة سترته..

وفي صباح اليوم التالي جاء سكرتير رئيس مجلس الإدارة يدعوه إلى لقاء الرئيس.. وسار كريم إليه وهو متأكد أنه سيبلغه بأنه قد استقالته ليحل محله في منصبه.. وابتسم له محمود وهو يصافحه في جدية من خلال ابتسامته.. غريبة..إن محمود يبدو أكثر وسامة وجاذبية في صبيحة ليلة الزفاف.. ليلة الدخلة.. كما أن ابتسامته مقبولة وليست منفرة كما كان يطلقها من خلال فمه الواسع جدا!..

وتكلم محمود البسيوني فورا قائلا:

- لقد سبق أن وعدتك بأن أقدم استقالتي لتحل محلي بعد أن تصبح جيهان لي وحدي.. وقد أصبحت فعلا لي وحدي.. ولكني أعتقد أنه لم يكن لك فضل في هذا.. إنك لم تكلف نفسك أي مجهود لتجمع بيننا.. ولم تقدم أي تضحية من ناحيتك.. بل إن كلينا.. أنا وجيهان.. ابتعدنا عنك منذ أن التقينا أول مرة.. ونحن وحدنا وصلنا إلى الزواج.. لذلك فإني أرى أني متحرر من وعدي لك.. أي لن أستقيل وأترك لك منصب الرئاسة.. ولكني في الوقت نفسه لا أنكر فضلك في أنك الذي عرفتني بجيهان.. ولذلك فستبقى حيث عينتك شكرا لك واعترافا بفضلك.. أي ستبقى نائبا لرئيس مجلس الإدارة.. وقد أردت أن أسمع رأيك اليوم لأني وجيهان سنسافر غدا لقضاء أيام من شهر العسل..

وكريم يستمع وهو يضغط على كل أعصابه حتى لا تهزه المفاجأة.. ويحرص على أن يظل محتفظا بابتسامته إلى أن قال:

- إني لم أكن أسعى أبدا لأكون رئيسا لمجلس الإدارة.. ولا حتى نائبا للرئيس.. وعندما قدمت إليّ عرضك أخذته كأنه نكتة أريد أن أسمعها وأضحك عليها.. وإن كانت نكتة فاجأتني بنهاية لم أكن أتوقعها.. ولذلك فإني سعيد بعدم تقديم استقالتك.. وأنا الذي سأستقيل من منصب نائب الرئيس.. فقد انتهت النكتة!..

ولمعت عينا محمود البسيوني كأنه فرحان باستقالة كريم من منصب نائب الرئيس.. وقال من خلال فرحته:

- هذا حقك.. ولكن أين تريد أن تكون بعد أن تترك منصب نائب الرئيس؟

وقال كريم وهو يقوم خارجا من مكتب محمود البسيوني:

- لم أفكر بعد فيما أريده..

وخرج كريم في خطوات سريعة.. وهو لا يضحك ولا حتى يبتسم لنهاية النكتة!..

* * *

حتى لا يكون أحد الزبائن

كان في حاجة إلى أن يتصل كل يوم بالبنك الذي يتعامل معه ويحتفظ فيه بكل أمواله.. ولكنه لم يكن يذهب بنفسه إلى البنك في كل يوم.. كان وكيل أعماله هو الذي يذهب كل يوم وهو لا يذهب إلا مرة أو مرتين في الشهر ليقابل المدير..

وهو بنك أسس على الطراز الحديث.. فالمتعامل مع البنك

لا يقف أمام شباك لينهي أعماله مع الموظف الجالس خلف الشباك كما هو قائم في البنوك القديمة.. ولكنه يدخل إلى بهو واسع مزدحم بالمكاتب الصغيرة وخلف كل مكتب يجلس الموظف أو الموظفة المختص.. ويتقدم المتعامل ليجلس أمام من يختاره لتأدية أعماله.. كأن البنوك الحديثة تراعي عدم إتعاب الزبون بأن يقف على قدميه أمام الشباك..

وهو لم يكن في حاجة إلى أحد من الموظفين أو الموظفات، إنما يسير أمامهم دون أن يلتفت إليهم في ممر مستقيم يصل به إلى مكتب المدير في غرفته الخاصة..

وفي مرة ذهب إلى البنك وكان يسير في الممر المستقيم عندما التفت بمحض الصدفة إلى بهو الموظفين والموظفات.. وإذا به يواجه موظفة تنظر إليه

بكل عينيها.. وعندما جمعت الصدفة بين عينيها وعينيه فوجئ بها تبتسم له ابتسامة حلوة!..

لماذا تنظر إليه هذه الفتاة؟!

ولماذا تبتسم له؟!

ولم يرد ابتسامتها.. وأرخى عينيه عنها بسرعة..وسار في طريقه إلى مكتب المدير..

ولكنه لا يزال متعلقا بهذه اللمحة.. لا شك أنها فتاة جميلة.. وفي جمالها جرأة ولكنها جرأة مهذبة.. وابتسامتها مثيرة كأنها تحمل دعوة إليه.. ولكنها أيضا دعوة مهذبة..

ولكن ما سر تعلقه بهذه اللمحة؟!

إنه لا يدري.. ربما لا شيء سوى التطلع البريء للجمال كما يتطلع وهو يسير في الشارع ويعجب بما يصادفه من الجمال.. جمال شجرة.. أو جمال المعروضات في دكان.. أو جمال امرأة.. جمال يمر بالصدفة وينتهي بانتهاء الصدفة..

وانتهى من لقاء المدير وعاد يسير على الممر في طريقه إلى الخارج.. وتعمد ألا يدير عينيه إلى بهو الموظفين.. ربما تمنى ساعتها أن يستعيد لمحة أخرى بأن ينظر إليها.. ولكنه قاوم.. إنه لا يريد أن يبدو كزبون بصباص فيفقد احترام موظفي البنك له..

ومرت أيام وهذه اللمحة السريعة التي التقطها بعينيه لا تريد أن تفارقه.. وكلما خلا إلى نفسه رأى صورة هذا الفتاة كاملة في خياله.. هذا الجمال الجريء جرأة

مهذبة.. هذه الابتسامة المثيرة التي توجه له دعوة مهذبة أيضا..

وكان يحاول أن يقاوم هذه اللمحة.. أن ينساها.. ولكن بعد أن مرت خمسة أيام وجد أنه أقنع نفسه بأن لديه أعمالا هامة تفرض عليه أن يذهب إلى البنك.. وابتسم ساخرا من نفسه وهو في طريقه.. ليست لديه أعمال هامة تفرض لقاء المدير.. أهم ما لديه أنه يريد أن يلمح هذه الفتاة لمحة أخرى.. ودخل من باب البنك وعيناه ملتفتتان إلى بهو الموظفين.. وفوجئ بأن عينيه قد التقت بعينيها.. كأنها تعيش وعيناها مبحلقتان في الباب في انتظار دخوله منه.. ومع نظرتها إليه قفزت الابتسامة المثيرة التي تحمل إليه دعوة.. ولم يستطع أن يقاوم هذه المرة وأطلق ابتسامة تلتقى بابتسامتها.. ولكنه لم يقف ليحيى واستمر يقطع الممر بخطوات مرتبكة حتى دخل إلى مكتب المدير.. ولم يبق مع المدير سوى دقائق ثم خرج.. ولكنه تعمد وهو يخطو فوق الممر ألا يعود ويلتفت إلى بهو الموظفين بحثا عن عينيها..

لا يستطيع.. لا يريد أن يبدو بصباصا لإحدى موظفات البنك..

ولم تمر أكثر من ثلاثة أيام عندما أحس بعدها أنه لا يستطيع أن يستمر في المقاومة..ونادى مدير أعماله وأبلغه أنه سيذهب إلى البنك بنفسه لحاجته إلى لقاء المدير.. وما كاد يدخل البنك حتى استقبلته بعينيها

وابتسامتها كما عودته.. وفي هذه المرة لم يتجه إلى غرفة المدير بل اتجه إليها مباشرة وبين شفتيه ابتسامة تحتضن ابتسامتها.. ووقفت من وراء مكتبها تستقبله وكل وجهها يزغرد بالفرحة.. وقالت بفرحتها وهي تشير إلى المقعد الذي سيجلس عليه:

- تفضل يا افندم..

وجلس أمامها وهو يحاول أن يجذب عينيه من عينيها.. وقال في هدوء مفتعل وفي صوت خافت كأنه لا يريد أن يسمعه بقية الموظفين:

- الواقع أني قررت هذه المرة الاستغناء عن لقاء المدير.. فمكتبه دائما مزدحم بالزائرين.. ثم أني أتيت لعملية بسيطة..

وقالت من خلال ابتسامتها:

- إننا مكلفون حتى بالعمليات الصعبة..

وقال وهو لا يستطيع أن يسحب عينيه عنها ولا أن يبتلع ابتسامته:

- لأبدأ معك بالسهل..

- وقالت كأنها تطلق حكمة تثبت بها شخصيتها:

- إنك لا تستطيع أن تطمئن على السهل، إلا إذا كنت واثقا من قدرتك على الصعب..

وقال كأنه ينافسها في المجادلة:

- إن الثقة تحتاج إلى وقت طويل حتى تتأكد..

وقالت في لهجة جادة لا تخلو من رنة دلال:

- إن الثقة تكفي أن تفترض.. ودوافع افتراضها تكفي لتأكيدها.. وقال وهو ينظر إليها كأنه يعتذر لها:

- إن ثقتي كاملة في هذا البنك وفي كل من يعمل فيه..

ثم وضع يده في جيبه وأخرج ورقة من أوراق الشيكات قائلا:

أريد أن أضع هذا المبلغ في حساب الوديعة.. وآسف.. فإني

لا أحمل رقم الوديعة الموضوعة باسمي..

وقالت وهي تلتقط الشيك من يده:

- لا يهم..يكفي اسمك..

ونظرت إلى الشيك تقرأ ما عليه واتسعت ابتسامتها..إنه شيك بمبلغ صغير.. مبلغ خمسمائة دولار.. لا يمكن أن يأتي الاقتصادي الكبير إبراهيم منصور إلى البنك بنفسه ليضع هذا المبلغ الصغير في حساب ودائعه.. إنه لم يأت إلا لها.. وهذا الشيك هو مجرد حجة للدخول إليها..

وقفزت واقفة كأنها تقفز بالفرحة وقالت:

- عن إذن سيادتك.. دقيقة..

وحملت الشيك وسارت نحو مكاتب الخزينة والحسابات.. وهو ينظر إليها من خلفها..إن قوامها رائع.. وصدرها.. وساقيها.. وعنقها.. وخصرها.. كأنها لوحة مثيرة تركها الله تختار كل خطوطها حتى تستكمل فيها كل هذه الروعة.. ليس فيها خط واحد لا يثير.. ويتمناه

كل رجل ولو لمجرد الفرجة.. وهي تسير في خطوات كأنها إيقاع في لحن موسيقي هادئ.. يهزك حتى لو لم يكن يهتزا..

وتنبه إبراهيم منصور لنفسه وأدار عينيه خفية إلى بقية الموظفين الذين يزدحمون في البهو.. لعلهم مسلطون عيونهم عليه حتى يكتشفوا سر اختياره لزميلتهم من بينهم.. ولكنهم كلهم متفرغون لأعمالهم ولا أحد منهم ينظر إليه أو يهتم به.. واطمئن..

وعادت إليه وهي تحمل إيصالات المبلغ الذي أودعه.. وقام واقفا وأخذ الأوراق، وقال وهو يقاوم نفسه حتى يكون جادا:

- شكرا..

ومد يده يصافحها، وقالت وهي تلتقط يده:

- إنك تتأخر عنا كثيرا..

وقال وهو ينظر إليها حائرا كأنه يريد أن يقول ولا يستطيع أن يقول:

- إن وكيل أعمالي هو الذي يتولى الاتصال بالبنك..

وقالت مبتسمة في حياء:

- تستطيع أن تقسم الاتصال بينك وبينه..

وانحنى فوق المكتب بسرعة كأنه اتخذ قرار مفاجئا.. والتقط قلما من فوقه وكتب أرقاما تليفونية على ورقة بيضاء وجدها أمامه.. ثم اعتدل منتصبا قائلا:

- حتى تجديني كلما شعرت بأني تغيبت..

ومدت يدها بسرعة فوق الورقة التي كتب عليها كأنها تخفيها.. دون أن تقول شيئا.. وعاد يقول وهو يضحك ضحكة خافتة:

- إنك تعرفين اسمي لأني زبون لديك.. ولكنك لست زبونة لديّ ولا أعرف اسمك..

وقالت وقد احتدت نظرتها كأنها تلومه:

- اسمي منال.. ولن أكون أبدا زبونة لدى أي إنسان..

وقال وصوته يتجلجل كأنه يعتذر:

- آسف.. لم أقصد ولكن..

ولم يتم.. وهز يدها التي يصافحها والتي كانت لا تزال في يده..وابتعد بسرعة خارجا من البنك كأنه يجري..

* * *

إنه لا يستطيع أن يقدم عليها أكثر من ذلك.. لقد افتعل فعلا كتابة هذا الشيك لإيداعه في البنك فقط ليكون حجة يقدم بها على الالتقاء بها.. وقد كتب لها قبل أن يتركها أرقام تليفونه الخاص في البيت وفي مكتبه.. فإما أن تتصل به لتقنعه أنه ليس مجرد زبون من المتعاملين مع البنك تجامله إلى حد الإغراء تأدية لمسئوليتها تجاه وظيفتها في البنك.. وإما لا تتصل به بالتليفون لأنه لا يمكن أن يجمع بينهما لقاء أو حديث إلا داخل البنك..

ولكنه لن يدخل البنك أبدا بعد ذلك..

وسيستغني عن كل احتياجاته للقاء المدير..ولقائها..

وفي نفس المساء جلس في مكتبه وهو يتطلع إلى التليفون بين حين وآخر في انتظار أن تتحدث.. ولم تتحدث.. ووجد نفسه يترك المكتب ويعود إلى البيت دون أن يفكر في قضاء سهرته في بهو الفندق الذي تعود أن يلتقي فيه بأصدقائه.. وجلس في البيت بجانب التليفون ينتظر.. إنه لا يتعمد هذا الانتظار، ولكنه يجد نفسه مدفوعا إليه مستسلما له.. وربما لو كان في حالة طبيعية لاحتفظ باحترامه لنفسه ورفض أي إنكار بلا موعد بل وبلا وعد.. ولكن هذه الفتاة وضعته في حالة غير طبيعية تدفعه إلى انتظارها..

وكانت الساعة قد وصلت إلى العاشرة مساء عندما دق جرس التليفون..ورفع السماعة بلهفة وبعد أول رنة.. إنها هي.. لقد عرف صوتها بمجرد أن نطقت كلمة «آلو».. رغم أنه صوت لم يسبق أن سمعه إلا مرة واحدة.. وقالت وهو يتخيل ابتسامتها فوق شفتيها وهي تتكلم.. الابتسامة المهذبة التي تدعوه.. قالت:

- أنا منال.. وأحدثك في التليفون لأقنعك أنك لست زبونا لي من زبائن البنك..

وقال في فرحة:

- لقد تأخرت.. لقد كنت أنتظر تليفونك من ساعة أن افترقنا..

وقالت ضاحكة:

- تعمدت أن أحدثك في ساعة لا تعتبر ساعة عمل.. حتى تطمئن إلى أنك لست زبونا..

وقال من خلال فرحته:

- لن أطمئن إلا إذا التقينا خارج البنك..

وقالت بلا غرور كأنها لا ترفض لقاءه:

- أين؟

وقال فورا:

- هنا.. عندي.. في بيتي..

وقالت من خلال ضحكتها الهادئة:

- لا تنسى أنك تريد أن تعتبرني زبونة لديك وتعرف اسمي كما أعرف اسمك.. وأريد أن أطمئن أنا أيضا إلى أني لست زبونة.. ولقائي بك في بيتك كلقائك بي في البنك.. لا يطمئن..

وقال بسرعة:

- إن البنك مزدحم بالموظفين والزبائن.. ولكن بيتي ليس فيه أحد ولا يتردد عليه أحد.. إني أقيم وحدي..

وقالت في بساطة:

-= أعرف أنك تقيم وحدك..

وقال في دهشة:

- كيف عرفتي؟!

قالت وهو يتخيل ابتسامتها بين شفتيها:

- إني أعرف عنك الكثير.. وسأصارحك بكل ما أعرفه ولكن ليس الآن.. المهم أن تأخذني من عقدتي كما أحاول أن آخذك من عقدتك.. عقدة الزبون والزبونة.. ولتبدأ بأن تحدثني في التليفون كما أحادثك.. وهذا هو

رقم تليفوني.. وأملت عليه رقم تليفونها ثم فاجأته قائلة مع ضحكة حلوة:

- باي.. باي..

وألقت سماعة التليفون دون أن تنتظر رد تحيتها..

ومضت دقائق وهو حائر.. ماذا تريد هذه الفتاة؟!.. وكيف يصل إليها؟!.. إنه يريد أن يكتشف طريق الوصول.. ثم عاد ورفع سماعة التليفون وأدار الرقم الذي تركته له..وسمع صوتها وقال فورا:

- إني لن أعرفك ولن تعرفينني بحديث التليفون.. ولن أتأكد أني لست زبونا لك، وأنت لن تتأكدي أنك لست زبونة لي إلا بمعاملة كل منا للآخر.. إلا بمعنى الحياة التي يمكن أن تجمعنا.. والحياة تبدأ بلقاء..

وقالت في صوت حنون كأنها تشفق عليه:

- لقاء بعيد عن عقدتك وعقدتي حتى يصون حالاتنا النفسية..

قال في ضيق:

- ماذا تقصدين؟

قالت في صوتها الهادئ:

- بعيدا عن البنك.. وبعيدا عن بيتك..

قال كأنه يستسلم:

- أين يكون ومتى؟

قالت كأنها تدلله بإشفاقها:

- حدد أنت.. فأنت مشغول بأعمالك أكثر مني..

واستعرض يومه بسرعة، ثم قال:

- غدا.. في الدور الثاني بفندق هيلتون.. الساعة التاسعة مساء.. إن الدور الثاني أقل ازدحاما من كافيتريا الدور الأول..

وقالت:

- لا أستطيع أن أتغيب بعد التاسعة مساء.. لتكن الرابعة بعد الظهر..

وقال في حدة كأنه يلومها:

- ولكني أكون في مكتبي في الساعة الرابعة..

وقالت بهدوئها المرح:

- لنلتق في يوم إجازتك من المكتب..

وقال كأن عناده يدفعه إلى الاستسلام:

- لا..غدا.. في الساعة الرابعة.. إلى اللقاء..

وألقى السماعة دون أن ينتظر ردها كما سبق ولم تنتظر رده في المكالمة السابقة.. كأن سماعة التليفون سقطت من يده.. وألقى بنفسه على الأريكة بجانب التليفون..وبدأ يحس كأنه يفيق على مصيبة.. كيف يلتقي بفتاة لا يعرفها في فندق هيلتون ويظهر معها أمام الناس؟!.. إنه لم يعرف عنه أنه يظهر مع الفتيات علنا.. بل إن سمعته التي تحيط بشخصيته هي أنه إنسان جاد يرتفع بنفسه فوق كل ما يمس الرجال من مظاهر الانحلال.. إن هذه الفتاة تدفعه إلى أن يفقد السيطرة على نفسه والاحتفاظ بشخصيته.. وهب منطورا وأمسك بالتليفون وأدار الرقم مرة ثانية وسمع صوتها كأنها تتثائب وقال فورا:

- سأنتظرك غدا بسيارتي أمام سور حديقة الأسماك.. في الساعة الرابعة..

وقالت متثائبة:

- حاضر..

وقال بسرعة:

- شكرا.. (ثم كأنه تذكر فأضاف).. تصبحي على خير..

ودخل فراشه لينام وهو مطمئن.. إنه سيلتقطها من أمام حديقة الأسماك ويطوف بها بسيارته في شوارع هادئة دون أن يعرض نفسه للفضيحة أمام الناس.. ولكنه لم ينم.. لقد عاد يسائل نفسه: ماذا تريد منه هذه الفتاة؟!.. إنها هي التي بدأت بشده إليها.. هذه النظرات الجريئة والابتسامات الكثيرة التي كانت توجهها إليه كلما دخل البنك.. لقد كانت كافية لشده إليها.. ثم استسلامها له بأن حدثته في التليفون.. ثم احتمالها لتغيير اللقاء من الهيلتون إلى رصيف الشارع.. لا شك أنها تريده.. ولكن ماذا تريد منه؟!.. لا يمكن أن يكون قد بهرها بوسامته.. فاستسلمت لما يقال عنه الحب من أول نظرة.. ثم إنه كبير في السن بالنسبة لها.. إنه في الأربعين وهي لا يمكن أن تكون قد جاوزت الخامسة والعشرين.. فلا يمكن أن يجمعهما اندفاع ومغامرات الشباب.. فماذا تريد منه؟!

وابتسم ابتسامة كأنه يسخر بها من نفسه.. إنه ليس مغفلا.. وهو يعرف ماذا تريد منه؟!.. إنها موظفة في البنك الذي يحتفظ فيه برصيده.. رصيده الضخم.. وكل

ما تريده هو أن يكون لها نصيب من هذا الرصيد.. إنها لا تريده هو إنما تريد الثمن الذي يدفعه لها.. وهي لا شك تعرف ما يعرفه كل الناس عنه.. وهو أنه غير متزوج.. لقد وصل إلى هذا العمر دون أن يتزوج.. وربما خيل إليها أنه لم يلتق بالفتاة التي تستطيع أن تقنعه بالزواج وقررت أن تحاول هي أن تكون هذه الفتاة.. تتزوجه وتتزوج معه رصيده في البنك.. ولكنها لا تعرف لماذا لم يتزو ج حتى اليوم؟!.. إنها لا تعرف أنه لم يتزوج لأنه بخيل.. إنه يعترف بطبيعته..إنه بخيل.. ولم يتزوج لأنه لا يريد أن يدخل أحدا شريكا له.. إن الزوجة تأخذ ولا تعطي شيئا مقابل ما تأخذه.. بل وتتعمد أن تفرط في إنجاب الأولاد والبنات لتأخذ أكثر.. هذا هو اقتناعه دائما..ولم تستطع أي فتاة أن تأخذه من اقتناعه..

وحتى بلا زواج.. فلم يكن له أبدا امرأة يرتبط بها ويتفرغ لها.. ولم تكن طبيعته كرجل تلح عليه للبحث عن امرأة يقضي معها ساعات للتفريج عن رجولته..حتى كان البعض يشيع عنه أنه عنين أعجز من أن ينفرد بامرأة.. والواقع أنه ليس عنينا عاجزا.. ولكنه بخيل إلى درجة البخل بنفسه على أي امرأة!.. وكانت الصدف تجمعه أحيانا بأصدقائه المقربين في ليلة تجمع الكئوس وهذا النوع من النساء.. وهو مدعو إلى كأس وإلى امرأة.. وكان يختار امرأة كما يختار الكأس التي يشربها.. والكأس تتعب أمعاءه، حتى يكاد يتقيأها.. وكذلك المرأة بعد أن يأخذها وينتهي منها يحس

بالقرف.. القرف منها ومن نفسه!.. وربما كان يقدم على ما يقدم له في مثل هذه الليالي لأنه مدعو.. أي لا يدفع ثم الكأس ولا ثمن المرأة.. وهو يجرب المتعة عندما لا تعتدي على ما في جيبه.. على بخله.. بل إن هناك امرأة طاردته حتى دخلت بيته لينفرد بها.. وكان كل ما يحيط بهما يفتح نفسه ويثير شهيته.. إنه في بيته وهو السيد.. إنه السلطان الذي ترتمي الجواري بين ذراعيه وتحت أقدامه.. ولكنه ما كاد يبتعد عنها حتى انتابته نوبة القرف.. وأصبح كأنه قرفان حتى من بيته!..

ولكن منال شيء آخر.. إنها غيرت كل طبائعه التي عاش بها.. لم تكن الصدفة وحدها هي التي جمعته بها.. ولكنه سعى إليها بقدر ما سعت إليه.. وهو يريدها حتى وهو يشك فيما تريده منه.. وقد أثارت فيه حرصه على رصيده.. أثارت فيه إحساسه بالبخل فلا يفرط في أمواله.. ولكنه يحس كأن كل ما تثيره هو مقدمة لدفعه إلى الاستسلام.. إنها قوية.. وقد أصبح يخاف الضعف أمام قوتها كأن شبحا مخيفا أصبح يطل عليه ويهدده..ويجب أن يقاومها.. يقاوم قوتها ويقاوم ضعفه!..

ولكن لماذا يتهم منال بكل هذه الاتهامات؟!.. إن من طبيعته أيضا أنه شكاك.. كل شيء في حياته يبدأ بالشك.. وربما كان هذا هو سر نجاحه كرجل أعمال.. فالشك يفرض عليك أن تتعمق في دراسة كل موضوع.. وتتردد كثيرا إلى أن تقتنع بأنك ستنجح وتكسب.. فمن

الطبيعي أن يشك فيما تريده منال منه.. وأن يدرسها ويتعمق فيها قبل أن يستسلم لها.

وفي اليوم التالي.. في الساعة الرابعة تماما كان يقف بسيارته أمام سور حديقة الأسماك.. لقد بدأت تأخذ منه من قبل أن يلتقي بها.. فقد اضطر أن يتنازل عن ثلاثة لقاءات عمل كانت محددة في مكتبه في نفس الموعد حتى يلقاها هي.. كأنه دفع لها مقدما جزءا من رصيده.. و إن كان لا يدري كم كان سيحقق من أرباح بهذه اللقاءات الثلاثة التي أخذتها منه؟!..

وتأخرت منال خمس دقائق.. سبع دقائق بالتحديد.. ثم ظهرت وفتحت باب السيارة ببساطة وجلست بجانبه دون أن يبدو ع لى وجهها أي تردد أو حياء.. كأن من الطبيعي أن تركب سيارة رجل غريب.. ولكن ابتسامتها شدت ابتسامته.. كأن كل ما فيه يبتسم لها.. وتبادلا الحديث كأنهما حائران من أين يبدآن.. وهو يقود سيارته في الطريق إلى شارع الهرم ويتعمد أن يختار الشوارع الهادئة.. ولكنه يجد نفسه دائما في شوارع مزدحمة.. إلى أن سألها وهو تائه بين الشوارع:

- لقد قلت لي إنك تعرفين عني الكثير.. فماذا تعرفين؟

وقالت ضاحكة:

- إنها قصة.. فلم أكن أعرفك أبدا شخصيا.. ولكني كنت أسمع عنك.. فقد اشتهرت بنجاحك منذ بدأت.. والناجح يثير الكلام عنه.. ومنذ كنت طالبة في الجامعة

الأمريكية كنت أشترك مع زميلاتي في الكلام عنك.. وعن كل ما يتردد عنك من حكايات.. وقد كان من بين ما يقال عنك إنك إنسان صعب!.. وكانت أختك الصغيرة طالبة معنا في الجامعة الأمريكية.. ورغم أنها أصغر مني وتبعد عني في السنوات الدراسية، إلا أني حاولت أن أصل إليها وأكتسب صداقتها ربما لأعرفك عن طريقها.. أو على الأقل لأعرف عنك أكثر.. ولكن أختك أيضا إنسانة صعبة!..

وقال وهو منفوخ بالسعادة للاعتراف به كرجل ناجح:

- ماذا تعنين بأني صعب؟!

وقالت وهي تسلط ابتسامتها على عينيه:

- أي أنك لا تستسلم اجتماعيا.. وليس لك أي حكاية حب.. بل لم يعرف عنك أي علاقة مع أي فتاة حتى بلا حب.. ولم تنطلق حولك أي إشاعة تروي مشروع زواج.. إنك إنسان جاد لا تخرج بشخصيتك عن عملك.. لذلك كمنت يائسة من أن ألتقى بك.. إلى أن التقينا صدفة في البنك..

وقال ضاحكا:

- وطبعا اكتشفت أني لست صعبا.. فقد أصبحت بمجرد نظرة بين يديك..

وقالت وابتسامتها تكاد تطير بها:

- لا تدري كم أنا سعيدة لأننا تعارفنا.. إني أحس الآن كأني أهم فتاة في مصر.. فتاة لا تعجز عن الوصول إلى إبراهيم منصور.. ولم يكن ذلك سهلا.. فقد مضى قرابة

عام وأنت لا تتردد على البنك إلا نادرا.. وعندما تدخل لا تلتفت إلى ناحيتنا لتراني ولو بنظرة عابرة..وتسير بخطوات جادة في طريقك إلى مكتب المدير كأنك عسكري جئت للتفتيش.. في حين أني منذ رأيتك لأول مردة تدخل البنك وأنا أعلق عيني بباب الدخول كل يوم.. حتى تعودت عيناي على الجمع بين الباب والأوراق التي بين يدي.. فإذا رأيتك داخلا تفرغت كلي إليك..وبصراحة كنت أسلط عيناي وابتسامتي عليك.. وبسرعة كنت أرفع أصابعي وأساوي شعري كأني على موعد معك وأتجمل لك.. ولكنك تأخرت طويلا حتى التفت إليّ ورأيتني لأول مرة..

وهو دهش لصراحتها.. إنها تعترف بأنها كانت تريده.. وقال:

- لقد تأخرت عنك سنوات وسنوات..إني عجوز وصلت إلى الأربعين وأنت طفلة في الخامسة والعشرين..

وقالت في جدية مرحة:

- الرابعة والعشرين من فضلك.. ومعروف أن البنات الصغار يتعلقن بالرجال الكبار.. والعكس.. فالمرأة العجوز قد تتعلق بالصغار.. وتستطيع أن تطمئن إلى أني لن أكون عجوزا معك أبدا.. إن العمر لا يحتسب بالسنين ولكن بالإحساس..

وقال من خلال دهشته لجرأتها:

- وكيف أطمئن على إحساسي وإحساسك؟!

وقالت وهي تنظر إليه في حنان كأنها أم تنصح ابنها:

- بأن تستسلم لواقع الإحساس دون التفكير في مستقبله.. لأن الإحساس هو الحياة.. والحياة لا يعرف مصيرها إلا الله..

واستمر الحديث بينهما لا ينتهي..وهو يزداد دهشة لجرأتها وصراحتها.. ويحس بهذه الجرأة والصراحة تربطه بها أكثر.. وكان أحيانا يتعب من قيادة السيارة ويهم أن يقف على جانب طريق هادئ، ولكنه يحسب حساب أنه قد يقترب منه عسكري بوليس أو خبير.. ويفكر أن يجلس بها على مقهى في أحد الفنادق القريبة، ولكنه يعود ويحسب حساب الناس.. وهي مستسلمة له.. لا تقترح شيئا.. وكانت الساعة قد وصلت إلى السابعة.. وهو يريد أن يبقى معها أكثر.. ولكنه لا يستطيع.. لقد تعب من القيادة.. وحمد الله أن كانت هي التي طلبت أن يتركها تعود.. وتركته قبل أن تنزل من السيارة يلتقط يدها ويضغط عليها بيده طويلا وهو ينظر إليها وقد اقترب بوجهه من وجهها.. كأنه يريد قبلة.. إن الشارع الصغير مظلم وهادئ ويتيح قبلة.. ولو قبلة سريعة.. ولكن لا. وفتحت باب السيارة وقفزت دون أن تنتظر حتى يحددا موعد لقاء آخر.. إن التليفون يجمعهما دائما..

وعاد إلى مكتبه ولكنه لا يستطيع أن يعمل كأنه لا يزال معها.. ويراجع مع نفسه كل كلمة قالتها.. لقد اعترفت بأنها تعرفه لأنه رجل ناجح.. والنجاح يتركز في

رصيده في البنك.. ولعلها بعد أن التحقت بالبنك ازدادت تعلقا به لأنها ازدادت تأكدا من نجاحه بمعرفة قيمة رصيده.. ولكن هل من حق أي موظفة في البنك أن تتطلع على رصيد أحد العملاء؟!.. يجب أن يتأكد.. ولكن كيف يتأكد أنها تعرف قيمة رصيده حتى تزنه به؟!..

وفي صباح اليوم التالي اتصل بها بالتليفون قبل الموعد الذي قدره لخروجها إلى البنك.. ورد عليه صوت رجل.. لعله أبوها أو أخوها.. وتردد قليلا، ثم سأل بسرعة:

- هل أستطيع أن أحادث الآنسة منال..

وقال الصوت دون أن يسأل عمن يريدها:

- دقيقة واحدة..

إنها عائلة لا تهتم بأن يتصل أي رجل ببناتها.. وسمع صوت منال وقال وهو يفتعل ضحكة:

- إني سأراك في البنك اليوم.. فإني في حاجة إلى لقاء المدير..

وقالت في رنة موظفة مسئولة:

- لماذا تريد لقاءه؟

وقال كأنه يشدها إلى الخطة التي وضعها:

- لأني في الواقع أريد أن أعيد مراجعة حساباتي مع البنك..

وقالت في بساطة:

- لست في حاجة إلى لقاء المدير.. سأتصل بك بالتليفون في مكتبك وأعرض عليك كل ما يخصك من

أرقام..

وقال في دهشة:

- هل تستطيعين؟

وقالت كأنها تلومه:

- طبعا.. لقد قلت لك إننا مختصون بكل العمليات السهلة والصعبة..

وذهب إلى مكتبه وجلس وعيناه مركزتان على التليفون.. ودق الجرس.. وانطلق صوت منال كأنه صوت موظف من موظفي بورصة الأوراق المالية يردد كل الأرقام التي تخصه في البنك.. أرقام الوديعة.. وأرقام الحساب الجاري.. وأرقام الحسابات المؤجلة.. وهو صامت في دهشة.. وبعد أن انتهت من سرد الأرقام.. وبلهجة رسمية أيضا حددا موعدا للقاء في مواجهة سور حديقة الأسماك أيضا..

إنه لم يعد يستطيع أن يستغني عن لقائها.. ولكنه دائما يريد أن يتخلص من الشك من أنها تريده لمشاركته في رصيده بالبنك.. واتخذ قرارا آخر.. فسحب كل رصيده من البنك الذي تعمل فيه منال.. وفي لقائه معها قال لها إنه سحب رصيده لأنه دخل في عملية خطيرة.. كأنه يريد أن يقنعها أنه أفلس حتى يتأكد من أنها تريده حتى بلا رصيد.. وردت عليه ساخرة:

- إنك حولت نصف رصيدك إلى بنك القاهرة.. والنصف الآخر إلى بنك مصر.. إن البنوك تعلم طبعا بكل تنقلات الأرصدة بين بعضها البعض..

وخاب أمله.. إنه لم يستطع أن يقنعها بأنه أفلس.. ولا أنه يجتاز بعمله مرحلة خطيرة.. إنه لا يزال أمامها الرجل الناجح صاحب الرصيد الضخم في البنوك.. ورغم ذلك فهو لا يستطيع أن يستغني عنها واللقاءات مستمرة بينهما.. وإن كان قد ازداد جرأة وأصبح يجلس معها في المقاهي أو الأندية الهادئة المنزوية.. حتى لو رآه كل الناس.. ولكنه لا يزال يلح عليها دائما أن يكون لقاؤهما في بيته.. ولكنها ترفض.. وقالت له مرة ضاحكة:

- لن يكون أحدنا زبونا للآخر إلا بالتليفون.. فإذا أردتني وأنا في البنك تحدثني في التليفون.. وإذا أردتك وأنت في بيتك حدثتك بالتليفون.. التليفون كاف بين الزبائن!..

وقال كأنه يستعطفها:

- ولكن لا يكفي في الحب..

وقالت ضاحكة:

- إن هناك دائما معركة في الحب بين الخلوة والتليفون.. إلى أن ينتصر أحدهما.. ونحن نهرب من هذه المعركة بلقائنا الذي لا يحقق خلوة ولا يحتاج إلى تليفون..

إنه يعلم أنها لن تكون له إلا إذا تزوجها..

ولكن كيف يتزوج فتاة كل ما تريده منه هو رصيده في البنك؟!

ولا شك أنه بدأ يتغير في طبائع شخصيته وخصوصا طبيعة الشك.. لقد ضاق بالشك في منال الذي لا

يستطيع أن يتخلص منه.. وقد كانت طبيعة الشك هي من أسس نجاحه كرجل أعمال.. ولكنه ضاق بهذا الشك حتى في مزاولة عمله.. ربما لم يعد يتحمل هذه الدراسات وهذا التردد الطويل قبل أن يقدم على العملية.. إلى أن وجد نفسه يدخل في عملية ضخمة تشمل كل رصيده في البنوك..

وفشلت العملية..

أفلس!..

وتلقى أخبار إفلاسه وهو في مكتبه وتحامل على نفسه متظاهر أمام موظفيه بأنه لم يفقد شيئا ولا يزال قويا!.. وما كاد يدخل بيته حتى سقط منهارا..

هل يستطيع أن يبدأ من جديد؟!

ورن جرس الباب كأنه يرد عليه.. إنه لا يريد أن يرى أحدا..

لا يستطيع.. ثم إن الساعة العاشرة مساء.. فمن يأتي إليه في هذه الساعة.. ماذا حدث؟!..

وخطا بقدميه كأنه يزحف وفتح الباب..

إنها منال!..

وهي أول مرة تدخل بيته.. وهي تبتسم نفس الابتسامة الحلوة التي تدعوه بها.. وفجأة.. وهي لا تزال واقفة عند الباب رفعت شفتيها إلى جبينه وقبلته.. ثم دخلت في بساطة كأن البيت بيتها قائلة:

- لقد جئت لأني تأكدت أني لا يمكن أن أكون زبونة.. لقد وصلتنا الأخبار.. ولم تعد تملك ما يكفى لإرضاء أي

زبونة!..

وقال في حدة:

- هل أنت سعيدة لأني أفلست؟!

وقالت وهي تلقي بنفسها على صدره:

- لا.. لست سعيدة. .ولكننا لم نفقد شيئا.. فقد أحببتك لأنك رجل ناجح.. ولا تزال هذا الرجل الناجح الذي أحبه.. وستبدأ من جديد وستبدأ بي.. سنبدأ بلا هذا الرصيد الذي كان يفرق بيننا.. الرصيد الذي كان يسيطر عليك وتبخل به.. والذي كان يجعلك تتصور أني طامعة فيه.. لقد كنت أحس بكل ما تحس به بسبب هذا الرصيد حتى دون أن نتحدث عنه.. والآن لم يعد هناك شيء يمكن أن يحرم أحدنا من الآخر. كلانا بلا رصيد في البنك.. ونحن معا نبدأ من جديد.. وأنا واثقة من أنك ستنجح.. وواثقة من نفسي أيضا.. فإني دائما ناجحة.. وسيكون رصيدنا معا أكبر وأكبر..

والتقت شفتيه بشفتيها.. وقد كان مستسلما لانهياره ولكن القبلة تمتد كأنها تحقنه بالحياة.. وهي القبلة التي انتظرها طويلا وكانت أمنية تغلب شكه وإحساسه برصيده، فبدأ يسترد معها كل حيويته ويطير بها فوق كل مصائبه..

وكانا قد سقطت بهما القبلة على الأرض ولا تتوقف.. وشدت منال شفتيها من شفتيه، وقالت وهي تنهج من كل ما أعطت وكل ما أخذ بالقبلة:

- إني كنت أرفض الزواج من رصيد في البنك.. ولكني أقبل الزواج بلا رصيد!..

وأفلتت من بين ذراعيه وقفزت من فوق الأرض وجرت نحو الباب وهي تقول كأنها تزغرد:

- سنلتقي غدا.. وبعد غد.. وكل يوم.. وإلى الأبد!..

وقال وهو ممدد على الأرض مسندا رأسه فوق يديه وبين شفتيه ابتسامة تضج بالسعادة:

- لا تنسي أنه لا يزال في الرصيد ما يكفي لحفل زفافنا!..

وتزوجا..

وبدآ من جديد!..

* * *

في دنيا الأوهام

كانت إلهام تعيش حياتها وبكل تفاصيلها في أوهام.. ولم يكن يخطر على بالها أنها تتوهم ولكنها تعيش أوهامها كأنها واقع لا تشك في واقعيته.. حتى لو كانت أوهاما لا تعبر عن شيء من الواقع..

كان الوهم الأقوى الذي تعيش فيه هو إحساسها بأنها فتاة جميلة.. جميلة جدا.. ولا شك أن في شخصيتها جاذبية طبيعية تريح كل من يلتقي بها.. ولكنها ليست جميلة جدا.. ولا حتى مجرد جميلة.. بل إنها تحمل كثيرا من المظاهر التي تتعارض مع الجمال.. فقوامها مكتنز سمين.. وردفاها من خلفها لهما حجم ضخم كحجم بلاص صغير من بلاليص الفلاحين.. ووجهها يجمع بين وجنتين منتفختين.. وإن كانا محتفظتين دائما بحمرتهما.. وانتفاخ وجنتيها يضغط على عينيها ويزيدهما ضيقا.. ويحصران أنفها الصغير حتى لا يكاد يبدو مع وجهها.. وربما كان كل ما يكتمل جماله منها هو شعر رأسها.. فهو في لون أسود سوادا أصيلا زاهيا.. وناعم في تموج طبيعي مثير.. ولكنها لا تشغل نفسها بتصفيف شعرها حتى يجذب العيون إليه.. إنها تقف أمام المرآة فتتوهم أنها كلها جميلة في منتهى الجمال.. بحيث لا يحتاج هذا الجمال إلى أي مجهود لإبرازه والعناية به.. وتكتفي بأن تبتسم أمام المرآة كأنها تحيي جمالها..

والوهم الثاني الذي تعيش فيه هو أنها فتاة من عائلة راقية عريقة.. وفي منتهى الثراء.. وهي ليست من عائلة عريقة ولا في منتهى الثراء.. ولكن والدها كان من الشطار.. بدأ حياته في خدمة تاجر من تجار الروبابيكيا.. أي الاتجار في البضائع المستعملة.. واستطاع أن يكتسب أسرار المهنة حتى استقل بنفسه وبدأ يتاجر في الروبابيكيا لحسابه الخاص..ثم اتسع وأصبح سمسارا لبيع الأراضي والأبنية.. ثم اتسع أكثر وأصبح يستورد البضائع من الخارج ليبيعها في مصر.. والأرباح الضخمة التي يحققها ترفع عائلته إلى أن وصل بها قريبا من القمة.. واشترى لها ڤيلّا أنيقة في حي الزمالك تعيش فيها.. ولا ينقصها شيء من كل مظاهر الرخاء.. وكانت إلهام في العاشرة من عمرها عندما توفي أبوها بأزمة مفاجئة شلت خفقات قلبه.. وقد توفي مفلسا.. فقد كان يستمد حياته من التلاعب بمعاملاته وأوراقه.. وعندما مات وكف عن التلاعب انكشفت كل هذه الأوراق وطارت في الهواء!..

وضاعت كل أملاكه وأمواله ولم يبق منها للعائلة سوى هذه الڤيلّا الفخمة التي يعيشون فيها بحي الزمالك.. ولم تحس إلهام بشيء تغير بعد وفاة أبيها..إنها لا تزال في نفس البيت وفي نفس غرفتها منه.. ولم تحس مع الأيام والشهور والسنوات أن البيت لم يعد يضم أحدا من الخدم.. ولا أنها أصبحت تقوم بنفسها بأداء كثير من الخدمات لنفسها بعد أن اختفت

مربيتها أم نعيمة.. ولم تهتم بأن العائلة أصبحت تبيع كثيرا من قطع أثاث البيت.. وهزت كتفيها بلا مبالاة عندما علمت صدفة أن أمها قد باعت السوار الماسي الذي كانت تقول دائما إنه سيكون من نصيب إلهام.. إنهم لم يكونوا يطلعونها على شيء مما يتخذونه لتدبير شئون العائلة.. وهي لم تكن تهتم بما تعرفه مما يخص هذه الشئون..

إن السنوات تمر وهي لا تزال تعيش أيام طفولتها وصباها.. تعيش الوهم بأنها من عائلة راقية في منتهى الثراء.. وتعيش الوهم الذي كانت أمها تغرزه فيها منذ طفولتها وهي أنها في منتهى الجمال..

وهي منذ أن نضجت وهي تتخيل الزواج.. وترسم الصورة وتضع الشروط التي ستختار على أساسها الشاب الذي تتزوجه.. إنها جميلة جدا فلن تتزوج إلا شابا وسيما جدا.. تثير وسامته كل بنات المجتمع وكل منهن تتمناه زوجا لها.. وهي من عائلة راقية في منتهى الثراء فلن تتزوج إلا شابا يوازيها رقيا وثراء.. كان كل خيالها في الزواج منحصرا في أوهامها ولا يصل أبدا إلى تقدير الواقع الذي تعيش فيه.. واقع أنها ليست جميلة.. وليست راقية ولا ثرية.. و هو واقع يدفعها لتنتظر نوعا آخر من الأزواج..

وقد تقدم لها بعض شبان من هذا النوع الآخر.. فكانت ترفض الزواج في إصرار.. تقدم إليها شاب ليس وسيما.. ليس فيه أي لمحة من الوسامة بل فيه ما يشوه

وسامته.. ولكنه شاب ناجح وله شخصية يمكن أن تفرض احترامه.. ربما اختارها لأنها هي أيضا ليست وسيمة ولم يسمع عنها ما يشينها.. ولكنها رفضته بمجرد أن التقت عيناها به لأول مرة.. وتقدم إليها رجل آخر ليتزوجها.. إنه أكبر منها بخمسة عشر عاما.. وقد كان متزوجا وماتت زوجته بعد أن تركت له ثلاثة أطفال.. ابنتين وولدا.. وربما اختار إلهام لأنه اعتقد أنها ليست جميلة بحيث لا يمكن أن يشدها اعتزازها بجمالها عن رعاية أطفاله.. ولأنه يعلم أنها ليست ثرية فيكفيها استقرار الحياة مع زوج يوفر لها المطالب العادية للحياة.. ولكنها رفضته فورا.. إنها جميلة ومن بنات الطبقة الراقية، ولا يمكن أن تمنح نفسها لرجل عجوز سبق له الزواج لتعيش معه كخادمة أو دادة تربي أطفاله.. ثم إنه يبدو ثريا، ولكنه ليس في منتهى الثراء..

وفي نفس الوقت كانت تحرص على زيارة صديقاتها التي تعتبرهن من بنات الطبقة الراقية..كن من زميلاتها في المدرسة أو من بنات الجيران في حي الزمالك.. وهي على أمل أن تلتقي عن طريقهن بالشاب الذي تتوهمه زوجا لها.. وقد كانت تتوهم أنها ناجحة في كل جلسة تجمعها بمثل هؤلاء الشبان.. كانت تتكلم كثيرا وتثير من حولها اجتذاب وضحكات المستمعين..إنها تحيي كل جلسة وتجذب كل الحاضرين إليها.. ولكن لا أحد يتقدم إليها يطلب الزواج.. وإن كان شريف قد بدأ يحادثها في التليفون.. بل أصبح يحادثها كل صباح وكل

مساء.. وهو يطلب منها في كل مرة أن يلتقي بها.. فترد لقاءه بأن تدعوه لمقابلة أمها.. وهي تعني أن يتقدم لخطبتها.. ولكن شريف ليس في حاجة إلى لقاء أمها، ولم يلبث أن امتنع عن حديث التليفون واختفى من حياتها..

وطالت الأيام إلى أن بدأ ممدوح يتقرب إليها.. إنه أكثر وسامة من شريف.. ومن عائلة أغنى.. إن أباه وزير له شنة ورنة.. وعندما دعته وهو يحدثها في التليفون إلى لقاء أمها.. أجابها في صراحة.. إنه يشرفه أن يلتقي بأمها.. وهو سيلتقي بها ليطلب منها ابنتها..ولكن كيف يلتقي بها وهو لم يلتق حتى اليوم بابنتها أي لقاء خاص ليحققا اقتناع أحدهما بالآخر؟!.. وصدقته.. وقبلت أن تلتقي به في سيارته.. وقال لها وهي بجانبه ويده تقبض على يدها:

- إنك تنتظرين الزواج كما انتظره.. ولكن الزواج لا يتم إلا نتيجة تجربة ناجحة.. أي أن نجرب كيف تجمعنا غرفة واحدة مقفلة علينا ونحن وحدنا.. بل كيف تجمعنا قبلة تحقق لقاء بين شفتيك وشفتي.. فإذا نجحت التجربة تزوجنا.. ولكننا إلى اليوم لم يجمعنا إلا لقاء في الشارع وداخل السيارة.. ولقاء عينيك بعيني..ويدك في أحضان يدي.. فكيف نستطيع أن نقرر الزواج؟!.

إنه يحرضها على أن تستسلم له ويأخذها إلى بيته.. وربما كان سيأخذها إلى غرفته.. وإلى فراشه.. ورغم ذلك كادت تقتنع وتستسلم.. ما دام يريد الزواج.. ولكن

أحست كأن أوهامها تثور عليها.. لا.. لن تستسلم.. وصاحت في حدة:

- إن التجربة قبل الزواج.. تقوم على إحساسك بي وإحساسي بك.. وباقي التجربة تبدأ بعد الزواج..

واختفى ممدوح من حياتها..

ورغم ذلك فهي لم تتصور أن مثل هؤلاء الشبان كانوا يخدعونها ويحاولون التغرير بها.. ولم يخطر على بالها أن بين الرجال من تكون من طبيعته تذوق هذا النوع من الأجساد المفرطحة السمينة كجسدها، بما فيه ردفاها المنتفختان كالبلاص الفلاحي.. ولكن كل ما كانت تصوره لها أوهامها أن هؤلاء الشبان أعجز من أن يتحملوا مسئولية جمالها ورقيها الاجتماعي.. ويخافون فيبتعدون.. وتستمر بها الحياة وهي في انتظار الزوج الوسيم الراقي الذي تبلغ قيمة شخصيته إلى حد أن يستطيع حمل مسئوليتها.. مسئولية كل هذا الجمال وكل هذا الرقي!..

وقد وصلت إلى السابعة والعشرين من عمرها وهي لم تتزوج.. ورغم ذلك لا تحس بأن شيئا يضيع منها.. ولا يقترب منها أي إحساس بأنها قد تعيش العمر كله كامرأة عانس.. عمر لا يشاركها فيه زوج.. بالعكس.. إنها تتوهم أنها أكثر تقدما اجتماعيا من أي بنت أخرى.. فالمجتمع لم يعد يفرض على البنت أن تتزوج في السادسة عشرة من عمرها، فإذا وصلت إلى العشرين بلا زواج اعتبرها

قد بارت وأصبحت بضاعة قديمة لا تصلح للعرض في سوق الزواج..

إن البنت الآن لا تستكمل كيانها وشخصيتها بالزواج.. إنما تستطيع أن تحتفظ بكل كيانها وبكل شخصيتها بلا زواج.. أصبحت البنت الآن حرة.. تختار بنفسها الرجل الذي تتزوجه ولو انتظرته.. حتى سن العشرين أو الأربعين أو التسعين!.. وسهام ابنة خالتها هي الآن في سن الثلاثين ولم تتزوج بعد.. رغم أنها جميلة ومن عائلة محترمة وإن لم تكن في مثل جمالها ولا في مستوى احترامها.. وإن كان معروفا عن ابنة خالتها أنها تعيش في مغامرات متتالية مع رجال.. ولا تتردد في إلقاء جسدها في أحضان أي رجل يغريها وتغريه..

إن الإغراء كالجوع بالنسبة لها لا تستطيع أن تقاومه.. وسهام جوعانة دائما.. ولكنها هي لم تحس أبدا بأي جوع جسدي.. ليس في جسدها نبض يتحرك يدفعها إلى اشتهاء جسد رجل ولو كان رجلا تغريها وسامته.. وحتى وهي تفكر في الزواج لم تكن أبدا تحس بحاجة جسدها إلى جسد رجل.. إن كل تفكيرها في الزواج مقصور على وضع اجتماعي تتمنى أن تصل إليه.. لذلك فهي ليست كابنة خالتها.. ولم يحطها أبدا أي كلام يمس كرامتها ونظافة جسدها..حتى ولا مجرد إشاعات.

هكذا كانت حادث نفسها وهي تعيش أوهامها..

وقد وصّلت أمها وأخوها الأكبر إلى حالة اليأس من أنها ستتزوج يوما.. وكان أخوها يعمل وينفق من دخله

على إعالة العائلة.. وكان

لا يتزوج في انتظار أن تتزوج إلهام أولا وتريحه من إعالتها.. ولكنه بعد أن وصل إلى حالة اليأس من زواج أخته تزوج هو.. وخصص لنفسه الدور العلوي من ڤيلّا الزمالك وهو في انتظار مولوده الأول.. وبدأ دخله يضيق عن تغطية مطالبه.. لقد أصبحت العائلة كلها في حاجة إلى زيادة الدخل.. واتفق مع أمه على أن الطريق الوحيد هو أن تعمل إلهام وتكسب إيرادا يضاف إلى إيراد العائلة..

واتصلت الأم بالسيد عبد الله برعي.. لقد كان يعمل لدى المرحوم زوجها أيام العز.. واستطاع أن يستقل بنفسه بعد وفاته ويصبح من كبار رجال الأعمال كأنه قد ورث المرحوم.. وهو لا يزال وفيا له.. ولو كان لا يبدي وفاءه إلا من بعيد.. فلا يتصل بعائلته ولا يحمل أي مسئولية عنها، وإن كان لا ينسى أن يرسل إليهم هدية من الياميش في رمضان.. وخروفا في عيد الأضحى..

وقد اتصلت به الأم ورجته أن يعين إلهام في أي عمل لديه.. وهي متعلمة تجيد اللغة الفرنسية التي تعلمتها في مدرسة الليسيه.. وهي قبل كل شيء ابنة المرحوم..وتركته الأم يفهم أنهم أصبحوا في حاجة إلى أي مرتب يعطيه لابنتها.. وإن كانت لم تقل هذا في استجداء صريح.. وقد أمر عبدالله برعي فورا بتعيينها سكرتيرة في مكتبه الخاص الذي يجمع عددا كبيرا من موظفي السكرتارية.. وحدد لها مرتبا محترما دون أن

يكون قد عرفها شخصيا أو عرف شيئا عن كفاءتها في العمل، كأنه يدفع مجرد زكاة عن أفضال المرحوم أبيها عليه!..

وفرحت إلهام فرحة كبيرة بالعمل كسكرتيرة في مكتب عبد الله برعي.. ولم يطرأ على فكرها أنها ستعمل إنقاذا لعائلتها من الفقر.. كل ما طرأ على فكرها أنها ارتقت إلى أعلى في المجتمع الراقي.. فكل بنات الذوات أصبحن يعملن خارج البيت.. رغم أنهن لسن في حاجة إلى زيادة الدخل.. إن ابنة المهندس عباس رفعت صاحب أكبر شركة مقاولات في مصر قد افتتحت لنفسها «بوتيك» تبيع فيه ملابس السيدات المستوردة.. وابنة السفير مصطفى محسن تعمل كمدرسة أطفال رغم أنها زوجة لديها ما يشغلها داخل بيتها.. ونهال ابنة الوزير السابق خليل رمزي ساهمت في شركة تستورد أجهزة التليفزيون ومكيفات الهواء وتعمل فيها كمديرة.. و.. و.. إن عمل المرأة لم يعد مظهرا من مظاهر الفقر.. ولكنه مظهر من مظاهر الاندفاع نحو الرقي الاجتماعي.. والمرأة لم تعد سجينة البيت وليس لها أي شخصية إلا داخل البيت.. إنها لم تعد تستطيع أن تثبت شخصيتها إلا خارج البيت.. وكان هذا ما ينطلق بفرحتها لأنها ستعمل..

وكانت إلهام منذ صباها وهي تدمن قراءة القصص.. وكل القصص التي قرأتها تدور حول حياة سكرتيرة تروي قصة علاقاتها برئيسها أو بصاحب العمل.. وكل

رئيس يصمم على أن تخلو له سكرتيرته وتمنحه المتعة بجسدها.. وخصوصا إذا كانت سكرتيرة جميلة مثيرة.. وهي جميلة مثيرة.. فكيف تقاوم رئيسها أو تقاوم عبد الله برعي نفسه صاحب الشركة؟!.. إنها تستطيع أن تقاوم!..

ولكن عبد الله برعي لم يرها ولم تره إلا مرة واحدة عندما دخلت إليه ليأمر بتعيينها.. ثم وضعها على مكتب في غرفة تضم خمسة موظفين.. إنه مكتب خال ليس عليه تليفون ولا ورقة ولا قلم.. ومرت أيام طويلة وهي لا تكلف بأي عمل.. ولا ترى عبد الله برعي أبدا فهو يدخل ويخرج من باب آخر دون أن يمر على هذه الغرفة.. ولكنها مكتفية بأنها تحمل لقب سكرتيرة.. وتذهب إلى مكتبها كل صباح دون أن تحاول أن تضع فوقه أي ورقة أو أي قلم.. محتفظة بانطلاق حيويتها وفرحتها.. ولا شك أن عبد الله برعي في انتظار عمل مهم يعهد به إليها..

وقد استطاعت أن تجذب إليها بجاذبيتها الطبيعية الموظفين الخمسة الذين تجمعهم الغرفة معها.. وهي لا تكف عن رواية الحكايات لهم.. وكلها حكايات عن الطبقة الراقية والعز القديم الذي تعيش فيه بأوهامها.. وقد مرت بها فترة وهي تدقق في اكتشاف كل منهم، لعل فيهم من يصلح زوجا لها.. ولكنها اكتشفت ان أربعة منهم متزوجون والخامس قبيح الشكل وثقيل الدم ولا يمكن أن تقبله زوجا.. ولكنها لا تمل جلساتها معهم..

كأنها تقضي وقتها في مقهى بدلا من أن تقضيه مخنوقة في البيت!.. وفي أول كل شهر تتعمد ألا تهرع إلى مكتب مدير الخزانة الذي يدفع المرتبات.. بل تكون آخر من يمد يده إليه.. بل قد تترك أياما تمر دون أن تمد يدها.. وتسألها أمها عن مرتبها في لهفة عندما تعود إليها في اليوم الأول من الشهر.. وتهز إليها كتفيها بلا مبالاة وتقول في اختصار: لسه!.. وبعد أن تقبض مرتبها تلقيه في حقيبتها دون أن تعد جنيهاته.. ثم تلقي الحقيبة كلها بين يدي أمها.. إنها لا تحب أن تلوث يديها بالنقود.. ولم تتعود أن تشغل بالها بها..

وهي منذ ولدت وهي مستسلمة لأمها.. تقدم لها أي طعام.. وتلبسها أي ثوب.. وتضع في حقيبتها كل صباح أي نقود.. وهي

لا تعترض على أي شيء.. ولا تريد أي شيء.. إن أوهامها تغنيها عن كل شيء.. قد تقدم لها أمها في الإفطار طبقا من الفول.. ولكنها تتوهم أنه طبق من المارون جلاسيه وتأكله وهي تحس بطعم المارون جلاسيه فعلا.. وقد تلبسها أمها ثوبا رخيصا تافه الزي يلوي شفتي الناس الذين يرونه إشفاقا عليها.. ولكنها تلبسه وهي متوهمة أنه آخر موضة وأنه مستورد من باريس.. ولذلك فهي أيضا لا يهمها أن تعرف كم يبلغ مرتبها.. إنها تسمع من أمها ولكن لا يهمها أن تعرف..

وقد فوجئت إلهام بأن ابنة خالتها سهام تتزوج.. تزوجت بعد هذا العمر الطويل.. لا شك أنها تزوجت أحد

هؤلاء الرجال الذين كانت تسخو عليهم بجسدها.. ربما كان الزواج لا يتم إلا بعد تجربة اللقاء الجسدي كاملا كما قال لها يوما ممدوح.. ربما كان عليها أن تعيش هذه التجارب حتى تجد زوجا كما وجدت ابنة خالتها من تتزوجه..

إلى أن رأته أمامها..مروان المطيعي.. إنه شاب في منتهى الوسامة.. وفي منتهى الرشاقة والأناقة..وإن كانت وهي تحيطه بعينيها بدأت تقدر أنه ليس في ذروة الشباب.. ربما تعدى الثلاثين وبدأ يقترب من الأربعين.. ثم إن البدلة الأنيقة التي تكسو قامته الرشيقة تبدو أنها بدلة قديمة.. كالحة في بعض جوانبها..

وهو أول مرة يدخل المكتب.. ويطلب لقاء عبد الله برعي في أمر خاص.. واعتذر له الموظف الذي يقوم فعلا بأعمال السكرتارية بأن الرئيس مشغول في اجتماع.. وربما كان هذا الموظف قد تأثر بوسامة وأناقة مروان.. وباللهجة الراقية المتكبرة التي يتحدث بها.. ثم إن اسم المطيعي يجمع كثيرا من الشخصيات المحترمة.. فطلب منه أن ينتظر قليلا إلى أن ينتهي الاجتماع وقد يستطيع لقاء الرئيس..

وتلفت مروان حوله يبحث عن مقعد يجلس عليه منتظرا فلم يجد إلا المقعد الملتصق بمكتب إلهام.. وقد رحبت به قريبا منها.. وشكرها بكلمات متعالية.. وبدأت فورا في كلامها الذي يروي حكايات المجتمع الراقي الذي تتوهم أنها تعيش فيه.. وتردد أسماء صديقات

كلهن يحملن أسماء عائلات معروفة وآباء بارزين.. وقد بدأ مروان يستمع إليها بلا اهتمام، ولكنه بدأ يهتم ويزداد اهتماما ورأسه يقترب من رأسها أكثر.. بل يسألها مزيدا من الحكايات ويطلب تفاصيل أكثر..حتى عرف أنها ليست متزوجة، لأنها لم تجد بعد الرجل الذي يستحق أن تتزوجه.. وقد رفضت العشرات ممن تقدموا إليها.. فلم يكن بينهم من يستكمل الشروط..

وانقضت ساعة وهي تحكي ومروان يستمع في لهفة.. إلى أن جاءه الموظف المختص وأبلغه أن الاجتماع قد انتهى، وأن الرئيس قد انصرف إلى موعد آخر خارج المكتب..

وانتصب مروان واقفا بقامته الطويلة الرشيقة، وقال في بساطة:

- سأمر عليه غدا..

ثم التفت إلى إلهام وأمسك يدها يضغط عليها وهو ينظر إليها كأنه يحتضنها بعينيه.. وإلهام تلقي نفسها بين عينيه وهي تبتسم ابتسامة واسعة.. إنها متأكدة أنه بهر بها.. وهو معذور.. فهي جميلة..

وفي بداية صباح اليوم التالي كان أمامها.. وحيا بقية الموظفين من بعيد ثم جلس قبالتها كأنه جاء خصيصا لها.. وكان هو الذي انطلق في الكلام.. كان كأنه يردد نفس الحكايات التي رددتها له أمس..إنه هو الآخر ابن ذوات يعيش مجتمع الطبقة الراقية.. وقد بدأ تعليمه في كلية فيكتوريا بالإسكندرية.. ثم سافر إلى إنجلترا

والتحق بجامعة أكسفورد ليدرس إدارة الأعمال.. وقد عاد منذ سنوات وكان والده الله يرحمه قد ترك له خمسمائة فدان.. ولكنه لم يهتم بالزراعة ولا يطيق أن يقيم في الأرض.. وتركها ليتفرغ للأعمال الحرة.. بل إنه ترك القصر الذي ورثه عن أبيه في حي جاردن سيتي.. إنه لا يطيق أن يقيم في قصر كبير يتوه بين حجراته.. وفضل أن يعيش في غرفة واحدة بأحد الفنادق الكبرى..

وإلهام تستمع إليه وهي مبهورة.. إنه يعيش نفس أوهامها.. ولم يخطر على بالها أنه قد يكون هو الآخر موهوما.. وأنه يعيش نفس حالتها.. قد يكون مفلسا يهرب بأوهامه من الحياة.. كما تعيش هي مفلسة هاربة من الحياة.. فقد استولت الثورة على كل أملاك وأموال أبيه وتركته يموت مفلسا.. وهو قد سافر فعلا إلى إنجلترا والتحق فعلا بجامعة أكسفورد، ولكنه لم يبق فيها إلا شهورا وعاد بعد أن ضاع أبوه وضاعت ثروته.. وهو لم يترك القصر، ولكن استولت عليه الدولة وتركته يعيش في الشارع.. وهو ليس رجل أعمال، ولكنه رجل يمد يده وهو محتفظ بمظاهر أصله العريق.. وهو لا يقيم بفندق كبير.. إنه يترك نفسه تأخذه كل ليلة إلى أين يقيم..

كل ذلك لم يخطر على فكر إلهام وهو يحادثها.. ولم تحاول حتى أن تراجع الخطوط الكالحة المطبوعة فوق بدلته الأنيقة التي يرتديها وتؤكد أنها بدلة قديمة..

قديمة جدا.. وهي مبهورة بكل ما يقوله.. وقد اتسع حديثه حتى كأنه يعيش معها الحياة كلها.. وقد قال لها خلال موضوع عابر:

- إن مطالب الزواج قد تغيرت، فإن العريس لم يعد يدفع مهرا، إنما يحتفظ بالمبلغ ليشتري به شقة يقيم فيها مع عروسه..

وقالت مقاطعة:

- إني سأبقى في ڤيلّتنا بالزمالك حتى لو تزوجت.. فإني لم أعد أستطيع أن أعيش في أي بيت آخر..

وقال كأنه يهمه أن يتأكد:

- هل تكفي هذه الڤيلّا لإقامة عائلة جديدة؟

وقالت في بساطة كأن أوهامها واقع:

- إن أخي وزوجته يقيمان في الدور العلوي، والدور السفل أقيم فيه مع أمي، ولكنه مخصص لي..

وقال مروان مبتسما:

- في هذه الحالة قد يحتفظ العريس بالمهر حتى ينفقه مع عروسه على قضاء شهر العسل في أوربا..

وقالت في فرح كأنها تقبل كل شروطه:

- هذا ممكن..

وعاد مروان يقول:

- والذين يتزوجون الآن أصبحوا لا يقيمون حفلات وينفقون الفلوس على مدعوين.. ما دخل هذه الزيطة والهليلة في إتمام الزواج؟!.. إنهم يستطيعون أن

يوجهوا الدعوات الهادئة بعد الزواج.. إن التنظيم الاقتصادي أصبح أساس تنظيم الحياة..

وقالت إلهام في حماس:

- لك حق..

وكان حديثهما يدور خفيضا كأنهما يتبادلان الأسرار.. دون أن يثير ذلك انتباه أحد من زملائها الموظفين.. ربما كانوا يتصورون أنه لا يمكن أن تقوم أسرار بين إلهام وأي رجل.. إلى أن جاءه السكرتير المختص يدعوه إلى لقاء الرئيس.. وقام مروان ونصب قامته واتخذ مظهرا جادا مهيبا ودخل مكتب عبد الله برعي..ولم يبق مختفيا سوى دقائق..ثم عاد إلى مكتب السكرتارية واقترب مباشرة إلى إلهام هامسا:

- هل يمكن أن نلتقي؟

وأحست إلهام بصرخة الفرح تملأ صدرها.. طبعا يمكن.. بل إنها مستعدة أن تدخل معه في كل التجارب التي يريدها.. لعلها تجارب تنتهي بالزواج كما انتهت تجارب ابنة خالتها.. ولكن طبيعتها أخذت تلح عليها حتى تغلبت، وقالت وهي تدير عينيها في خفر كأنها عروس:

- تستطيع لقاء ماما..

وقال مروان في لهجة متعالية..

- يشرفني..متى؟!

واتسعت عيناها من الدهشة والانبهار، وقالت كأنها لا تصدق نفسها وإن كانت أوهامها تصد عنها المفاجأة:

- غدا في الساعة الخامسة.. لتناول الشاي..

***

وكان مروان في البيت مع أمها وأخيها.. وقد سبق أن أبلغتهما إلهام بأنه سيجيىء ليطلبها للزواج.. وهي موافقة مقدما.. وفرحت الأم والأخ فرحة كبيرة.. أخيرا ستتزوج إلهام.. ولم يحاولا أن يتقصيا عن مروان ليعرفا عنه شيئا.. اكتفيا بما قالته لهما إلهام عنه.. حتى لو كانت قد بالغت فيما تقوله فيكفي أنه رجل يتقدم للزواج.. وقد استقبلاه بترحاب كبير حتى أن أخاها أقدم على شراء علبة شيكولاتة ليقدم له منها..

وكان مروان جادا كأنه لا يطيق المقدمات ودخل في الموضوع مباشرة.. إنه يطلب يد إلهام.. وسيقيم معها في الفيلّا كما سبق وطلبت منه.. ولن يقدم مهرا وسيحتفظ به لقضاء شهر العسل في أوربا.. ولن يقدم شبكة.. فهو يعتبرها كأنها رشوة للعروس.. ولكن هداياه لن تتوقف أبدا.. ولن يقام حفل زفاف.. إنه لا يطيق مثل هذا التهليل وهذه الزيطة..

ووافقت العائلة على كل ما يريد وعلى أن يتم عقد القران يوم الخميس القادم..مجرد حفل عائلي.. والأم مأخوذة بوسامة مروان وأناقته وتكاد تحسد ابنتها عليه.. والأخ يحمد الله أنه استطاع أن يتخلص من إعالة أخته أخيرا.. وإلهام يهتز كل ما فيها فرحا حتى ردفيها المعلقين أسفل ظهرها كبلاصين صغيرين من بلاليص الفلاحين يهتزان..

وقالت له وهي تودعه على الباب:

- إني لم أعرف لماذا قابلت السيد عبدالله صاحب الشركة؟!

وقال في بساطة:

- قدمت له مشروعا جديدا وقد أبلغني أنه يحتاج إلى وقت لدراسته..

وكان قد دخل على صاحب الشركة بمشروع هو مجرد وهم خيالي.. وكان يطلب أن يعين مديرا لهذا المشروع.. وعبد الله برعي يعرفه.. يعرف أنه عزيز قوم ذل.. ويشفق عليه فلم يصدمه برفض هذا الوهم الخيالي، ولكنه طيب خاطره بأنه في حاجة إلى دراسة هذا المشروع، ثم مد يده في جيبه وأخرج مبلغا كبيرا وأعطاه له.. وهو يقول له باسما:

- هذا مقدم الأتعاب.. ومُر عليّ بعد سنة، فقد أكون قد انتهيت من دراسة مشروعك..

وكان هذا المبلغ الذي استجداه مروان هو ما عاونه على شراء خاتمي الزواج له ولإلهام..

وربما لاحظت إلهام وهي تودع مروان أنه يطوف بعينيه بين قطع الأثاث الموزعة في البيت.. فعاجلته قائلة:

- إن ماما مصممة على الاحتفاظ بكل قطع الأثاث القديم.. وتعتبره كأنه مجموعة من التحف الغالية لا يمكن أن يوجد اليوم مثلها.. بل إنها لا تحاول إصلاح ما

يحتاج إلى إصلاح.. فهي تعتبر نفسها كأنها هي نفسها قطعة من هذه الأثاث، ولا يمكن أن تقبل إصلاح نفسها..

ورد عليها مؤكدا معها:

- فعلا.. إنه قطع من التحف الغالية النادرة..

***

وتم الزواج..

وكلا الزوجين يعيشان في سعادة أوهامهما.. كأنهما في أعلى قمة الطبقة الراقية.. حتى أن مروان لا ينادي زوجته إلا باسم.. إلهام هانم.. وإلهام لا تناديه إلا.. مروان بيه.. وكلاهما لا يحسان بأي مشكلة تحيط بهما.. ولا يشعران بأي شيء ينقصهما.. إنهما في منتهى السعادة في دنيا الأوهام!..

ولكن الأم والأخ في حالة جنون.. إن العريس الذي أصبح يقيم معهما في البيت لا يدفع شيئا من نفقات العائلة.. بل لا يدفع ما يمكن أن يحميه هو شخصيا من الجوع.. قد يعطي للأم يوما خمسين جنيها..وتمر شهور طويلة ثم يعطيها عشرين.. وهما لا يعلمان ما يعمل.. ولا حتى من أين يأتي بهذه المبالغ الصغيرة التي يدفعها أحيانا.. والأخ يثور في وجهه ويسبه بأقذع الشتائم.. ومروان يتلقى ثورته في هدوء مقتنعا بأن هذا الأخ لابد أنه مجنون وهو مضطر أن يتحمل جنونه.. وإلهام رغم كل هذه الضجة لا تشعر بأنه ينقصها أو ينقص زوجها أي شيء..إنها إلهام هانم وهو مروان بيه!..

إلى أن ماتت الأم..

إنها ماتت كمدا وحسرة على زواج ابنتها من هذا المخلوق، رغم أنه لم يمض على زواجها منه شهورا!..

وبعد أن ماتت الأم أعلن الأخ أنه قد باع الڤيلاّ.. وقد باعها بثمن غال يخص إلهام منه ثلاثين ألف جنيه..

ولم يجادلاه.. ولا خطر على فكرهما أين سيقيمان بعد أن باعا البيت..ولكن مروان وإلهام فرحا بنصيبهما من ثمن بيع البيت.. وكانت فرحة هادئة كأن ما حدث ليس مفاجأة.. كأنهما تعودا على أن تصلهما مثل هذه المبالغ الكبيرة.. باعتبارهما من الطبقة الغنية التي يقيمانها بأوهامهما.. وانتقلا إلى الإقامة في أحد الفنادق الكبرى!..

ولم يشتر مروان بدلة جديدة.. فهو لا يعتبر أن البدلة التي يلبسها قديمة.. وكان قد اشتراها من لندن منذ سنوات طويلة.. وهو لا يشتري أبدا إلا من لندن.. أما إلهام فقد ضاعت بعد أن ماتت أمها التي كانت تشتري لها.. إلى أن وقعت في يد صاحبة بوتيك مقام داخل الفندق فاستسلمت لها كما كانت مستسلمة لأمها.. وإن كانت قد اعتبرتها كأنها ليست أكثر من امرأة في خدمتها.. وتدفع لها كل ما تطالبها بدفعه..

وهما في منتهى السعادة!..

حتى لو انتهى هذا الثراء المفاجئ الذي أحاطهما.. وقد ينتهي بعد أيام.. ولكن أوهامهما لن تنتهي أبدا!..

في درج الذكريات

كما هي العادة.. إنه يوم الاثنين من أيام الأسبوع.. وقد عاد عبد السميع إلى البيت وهو يحمل في يده مجلة عربية مصورة تحمل اسم «أخبار الناس».. وهي مجلة تصدر في بيروت ولا تزال تصل إلى القاهرة كل يوم اثنين.. وقبل أن يخلع ملابسه ألقى عبد السميع بنفسه على المقعد العريض المخصص له.. وأخذ يقلب في صفحات المجلة بسرعة إلى أن وصل إلى الصفحات المخصصة لتسجيل أخبار المجتمع الراقي هناك.. في بيروت.. والتي تغطيها صور فوتوغرافية للحفلات الاجتماعية وللشخصيات الراقية، وتضم بها صور سيدات هذا المجتمع.. إن نسبة الجمال عالية جدا بين نساء المجتمع الراقي البيروتي.. ويستغرق عبد السميع في قراءة كل الأخبار التي تنشر على هذه الصفحات، ويدقق النظر طويلا في كل الصور المنشورة كأنه يبحث عن وجه معين قد يكون مختفيا في ظلال الصورة..

ولا تمر دقائق حتى يكون عبد السميع قد انتهى من الاضطلاع على هذه الصفحات المحددة فيلقي بالمجلة كلها بعيدا عنه.. وتعودت زوجته سعاد بعد أن يكونا قد انتهيا من تناول طعام الغداء، أن تلتقط المجلة وتلقي بها في مخزن الأوراق المهملة في انتظار أن تبيعها

لتاجر الروبابيكيا الذي يشتريها بين بقية الصحف والمجلات المقروءة.. بالوزن..

ومنذ اكتشفت سعاد أن زوجها يعد إليها كل يوم اثنين حاملا هذه المجلة.. ثم لاحظت هذه السرعة التي يتصفحها به.. وهي في حيرة.. وقد سألته بعد أن بدأت حيرتها:

- لماذا تشتريها؟!

وقد رد عليها في اقتضاب يقطع ابتسامته الدائمة:

- تعودت على شرائها منذ كنت أقيم في بيروت..

ولم يضف أي كلمة تبرر استمراره على هذا التعود.. ولم يقل لها شيئا عما تعود أن يقرأه على صفحاتها ولا عما يبحث عنه فيها..

وقد مضى الآن أكثر من عشرين عاما وعبد السميع يعود إليها كل يوم اثنين حاملا هذه المجلة.. حتى تعودت هي الأخرى على التقاطها والقذف بها في مخزن المهملات..

* * *

ورغم مرر كل هذه السنوات، فقد ظل عبد السميع كلما خلا إلى نفسه يهيم مسترجعا ذكريات سنوات شبابه التي قضاها في بيروت..

كان قد قرر أن يسافر إلى الخارج بحثا عن عمل بعد أن ضاق بالمشاكل الكثيرة التي تواجهه في مصر..وضاق بالفقر.. ولم يكن قد أتم تعليمه.. ولم يحصل على أي شهادة راقية يزود بها شخصيته.. ولم

يكن متخصصا في أي حرفة يحاول أن يقدم بها نفسه في العالم الخارجي الذي يقحم نفسه عليه.. ورغم ذلك قرر الهجرة إلى الخارج.. واختار أن يبدأ ببيروت، ربما لأنه استطاع أن يهرب على مركب تحمله إلى هناك.. لم يهرب عن طريق غير شرعي، بل استطاع أن يجد عملا على الباخرة يعفيه من دفع ثمن التذكرة.. مجرد خادم.. يكنس ويمسح في الباخرة ويلبي طلبات الركاب.. وبمجرد أن وصل إلى بيروت استطاع أن يجد عملا كشيال تابع لإحدى الشركات التي تعمل في الميناء.. يعمل في نقل البضائع من المراكب إلى الأرض.. ويعتبر أجره اليومي نعمة سخية يوفرها له الله بالنسبة لأي أجر كان يمكن أن يحصل عليه وهو في مصر..

وقد ظل يعمل كشيال في الميناء قرابة عام، واستطاع بهدوء شخصيته وبذكائه وحرصه على عدم تعريض نفسه لأي مهانة أن يكسب كثيرا من الأصدقاء وثقة كل المسئولين عن عمله.. فأخذ يتقدم بسرعة حتى وصل إلى أن يكون مشرفا على فريق من الشيالين.. وارتفع أجره اليومي.. كما أصبح من السهل عليه أن يحل جميع المشاكل المتعلقة بإقامته في بيروت باعتباره أجنبيا.. إنها مشاكل لا ترتبط بأي قانون أو لوائح وإجراءات لبنانية.. إنها فقط ترتبط بالعلاقات الشخصية والكلمة الحلوة.. وهو من الذكاء بحيث يستطيع أن يعيش هذه العلاقات ويحرص على اختيار كل كلمة ينطق بها لسانه..

إلى أن صادفه عمل آخر.. إنه عمل شيال أيضا.. ولكنه شيال يرافق سائق سيارة اللوري الضخمة التي تحمل البضائع من بيروت إلى دمشق أو إلى الأردن أو إلى السعودية أو العراق.. إن بيروت هي مركز تصدير لكل دول الشرق العربي.. وهو يريد أن يتفرج على كل هذه الدول.. ثم إنه يتقاضى أجرا مضاعفا.. وقد أصبح يقضي شهورا متنقلا بسيارات اللوري بين العواصم العربية بحكم عمله كشيال، وإن كان يخفف من ثقل هذا العمل إحساسه بأنه سائح يجوب الآفاق ويكتشف معالم الدنيا ويتزود بالمعرفة ومتعة المشاهدة والتعامل مع خلق الله.. ثم كان يعود إلى بيروت ليقضي أياما في راحة، ثم يقفز على اللوري من جديد ليطوف في الصحراء إلى أن يصل إلى دول خلق الله..

وقد استطاع عبد السميع أن يجمع من عمله مبالغ ضخمة تكاد تعتبر ثروة.. وحرص على أن يحتفظ بهذه الثروة في أحد البنوك.. دون أن يكون بخيلا على نفسه.. فهو يوفر لنفسه الطعام الجيد ولا يعتمد على الدعوات التي تصل إليه ليأكل مجانا.. إنه يرفض هذه الدعوات حتى لا يحس بنفسه كشحاذ يستجدي تبرعات المحسنين.. أو ربما لأنه لا يريد أن يضطر إلى رد هذه الدعوات مما قد يثقل على ما في جيبه من مال.. لذلك عرف بانعزاله عن المجتمع الذي يعيش فيه، وإن كان لم يفقد احترام هذا المجتمع وهيبة شخصيته فيه.. كما أنه كان حريصا على أن يظهر دائما محترما نظيفا حتى

الحذاء الذي يضع فيه قدميه.. وله زي خاص يرتديه أثناء العمل ويحتفظ ببدلة أنيقة محترمة يظهر بها في أوقات الفراغ.. وهو لا يستغل فراغه إلا بالسير في الشوارع يمتع نفسه بالفرجة والمشاهدة.. كما أنه بعد أن ارتفع أجره وزاد دخله انتقل من سكنه بالحجرة الضيقة التي يستأجرها لدى عائلة لبنانية فقيرة تقيم في أحط أحياء بيروت.. إلى غرفة أخرى في حي أرقى وأوسع وأنظف لدى عائلة من عائلات الطبقة الوسطى، رغم أنه بدأ يدفع أكثر.. إنه
لا يبخل على نفسه أبدا..

وهو منذ وصل إلى بيروت وكثير من الإغراءات تلاحقه.. إغراءات قد تصل إلى منتهى الانحلال.. والإغراءات الانحلالية في بيروت ليست مقصورة على الطبقة الغنية.. إنها أبعد شيوعا وأشد تدميرا بين الطبقة الفقيرة.. ولو كان قد استجاب لهذه الإغراءات لكان قد أفلس وعجز عن العمل وتشرد، أو ربما كان قد مات بتأثير المخدرات مثلا وألقيت جثته بين أكوام الزبالة، بدل أن تدفن في القبر المحترم الذي تمتلكه العائلة في قرافة المجاورين بمصر.. ولكن الإغراء الأقوى الذي كان يلاحقه هو إغراء النساء وهن يتهافتن عليه.. فقد كان عبدالسميع وسيما رشيقا.. وهو يزداد مع الأيام وسامة ورشاقة.. وعمله كشيال كان كأنه تمرينات رياضية مستمرة تزوده بمظهر قوة الرجولة.. مظهر يغري به كل امرأة.. سواء كانت امرأة أو فتاة.. وكل منهن تتمنى أن

تتبرع بنفسها إليه.. لا تريد أن تأخذ منه شيئا سوى أن تضم هذا الجسد الوسيم الرشيق القوي إلى جسدها!.. حتى لو دفعت هي الثمن!..

ولكن عبد السميع مصمم وقادر على أن يقاوم أي إغراء.. وهو متمسك بتخطيط صارم وضعه لنفسه.. سيبقى في بيروت إلى أن يجمع من الأموال ما يعتبره كافيا أو ما يطمئنه ويرضيه.. ثم يعود إلى مصر ويختار زوجة من بنات بلده.. إنه لا يقبل أن يتزوج من بنات بيروت ولا من بنات أي بلد عربي آخر.. إن الفارق في الشخصية بين بنات أي بلد فارق كبير.. ولا يمكن أن تجتمع شخصيته إلا بشخصية فتاة مصرية..ثم بعد أن يتزوج في مصر إما أن يعود بزوجته إلى بيروت أو يستقر بها في مصر..

كان هذا هو التخطيط الصارم الذي وضعه لاستكمال حياته بالنصف الآخر.. حتى أنه قد مضت عليه كل هذه السنوات في بيروت دون أن تلمس أصابعه لحم امرأة.. حتى قالت عنه نساء هذا المجتمع الذي يعيش فيه إنه عنين.. بل قيل عنه إنه شاذ في تعاليه وإنه ثقيل الدم لأنه حتى لو كان عنينا فهو لا يقبل المحاولة مع أي امرأة.. أما هو فكان قد تعود أن يعيش أحلامه في التفريج عن مطالب رجولته.. وكثيرا ما كانت تشتد به هذه المطالب حتى ينفرها وهو في أحلامه.. ويقوم من النوم ويدخل الحمام حتى يطهر جسده..

إلى أن جاء يوم أصبح فيه يعاني غاية الملل والزهق من عمله كشيال على سيارة لوري تجوب الآفاق.. لقد ضاق حتى من التردد على كل هذه العواصم العربية.. لم يعد فيها شيء جديد يبهره ويثير اهتمامه.. ولكنه لا يزال مقبلا على الإقامة في بيروت.. وقد بدأ يبحث عن عمل آخر يقوم به.. إنه لا يريد أن يستمر كمجرد شيال.. وبالصدفة قرأ في الصحف إعلانا عن فندق جديد في حاجة إلى عمال وموظفين.. وقام فورا وارتدى البدلة الأنيقة التي يحتفظ بها لأوقات الفراغ.. وذهب إلى الفندق..

ولم يكن يعلم ما هو العمل الذي يمكن أن يقوم به في هذا الفندق؟!.. ولا حدد لنفسه أي مطالب.. ولكنه فقط يحاول الانتقال إلى مجال عمل آخر..مهما كان هذا المجال.. وعندما وقف أمام ممثل الفندق الذي يختار من بين المتقدمين.. لم يحاول أن يكذب عليه ويدعي لنفسه مواهب تؤهله لأي عمل، بل كان يكتفي بأن يردد مع كل سؤال أنه مستعد لأن يقوم بأي عمل يعهد به إليه.. كأنه كان مستعدا أن يقبل حتى لو عين في الفندق كمجرد شيال كما كان.. ولعل ممثل الفندق تأثر بجانب بساطة عبد السميع وصراحته وتعمده عدم الادعاء.. تأثر بوسامة وجهه الأسمر وبقامته الطويلة الرشيقة وقوة رجولته الجذابة.. فقرر اختياره للعمل بالفندق على أن يقف أمام الباب الرئيسي، يستقبل

الوافدين ويفتح أبواب السيارات الوافدة مرحّبا ويجيب طلبات كل وافد..

وفي اليوم التالي كان عبد السميع يقف ممشوقا على باب الفندق وهو يرتدي بدلة مزينة تزيينا هادئا زودته بها إدارة الفندق.. ويفتح باب كل سيارة وافدة وهو ينحني برأسه..كأنه يضن على أي مخلوق بأن يحني قامته له..ويقول كلمة ترحيب.. بل إنه استطاع في أيام أن يتزود ببعض الكلمات الإنجليزية والفرنسية ليلاقي بها الوافدين الأجانب..

لقد بدأ عمله الجديد ناجحا..

إلى أن وجد نفسه في أحد الأيام بعد أن فتح باب سيارة وافدة تتعلق عيناه بسيدة شابة تخرج منها.. ويبلغ من تعلق عينيه بها إلى حد أن ينسى أن يغلق باب السيارة وراءها ويتبعها بعينيه وهي تخطو خطوات رشيقة ، كأنها تطير بها فوق الأرض إلى داخل الفندق.. بل إنه لم ير الرجل الذي كان يصحبها في السيارة ونزل منها معها..

ودهش بينه وبين نفسه لرعشة عينيه عندما التقيا بهذه السيدة.. وحاول أن يهرب بسرعة من هذه الدهشة..حاول أن يكذب نفسه ويكذب ما فوجئ به من إحساس.. ولكنه وجد نفسه وهو يؤدي عمله بقية الليل لا يكف عن التطلع إلى باب الفندق في انتظار أن يراها خارجة.. وقد خرجت في آخر الليل بصحبة عدد من سيدات ورجال المجتمع اللبناني الراقي.. وهي بينهن

كأنها تسير فوق ابتسامتها الحلوة الهادئة.. ووجد عينيه تتعلقان بها مرة أخرى.. كأنه مبهوت.. حتى أهمل في مناداة السيارة التي ستركبها.. إلى أن لكزه رجل يصحبها وأعطاه الورقة التي تحمل رقم السيارة.. فقد كان من العادة أن يعطي لكل صاحب سيارة رقما ينادي به على سيارته لتأتي إليه وهو خارج من الفندق..وصاح برقم السيارة وهو يلوم نفسه على إهماله رغم حرصه دائما على أن يكون عاملا مثاليا..

ماذا في هذه المرأة مما تتعلق به عيناه ويدهمه بلخبطة كيانه؟!

إنها ليست أجمل امرأة رآها في بيروت.. بل لعل من بين الوافدات على الفندق من هن أجمل منها بكثير.. ولكن لا شك أن فيها ما يميزها عن كل نساء بيروت.. ربما فيها ما يميزها عن كل نساء العالم.. فيها لمحات خيل إليه أنها مخصصة له وحده لتشده إليها وتثير إحساسه إلى هذا الحد!..

وبدأ من ليلتها يحاول أن يعرف من هي.. يحاول أن يسأل العاملين في الفندق أسئلة تبدو كأنها أسئلة عفوية لا تعبر عن أي غرض.. كما بدأ يواظب على قراءة الصحف اللبنانية التي تخصص صفحاتها لأخبار وصور نساء ورجال المجتمع الراقي.. ومجلة «أخبار الناس» هي أكثر الصحف تتبعا لأخبار هذه المرأة ونشر صورها.. فأصبح حريصا على التزود بها كل أسبوع ولا يقرأ منها

إلا هذه الصفحات التي قد يجد فيها سطورا عنها.. عن شرويت!..

إنها السيدة شرويت الكيالي.. وعائلة الكيالي تعتبر من أكبر وأغنى عائلات لبنان.. وقد تزوجت منذ عامين فقط بالسيد فريد الكيالي.. وهو من أبرز شخصيات هذه العائلة.. وعبد السميع من كثرة ما سمع وقرأ عنها أصبح يحس كأنه يعيش معها كل حياتها..وهو لا يستطيع أن يتخلص من إحساسه بها.. ولكنه يحاول أن يضع هذا الإحساس كأنه خيال من الوهم الأفلاطوني.. خيال لا يقترب أبدا من الواقع.. كيف يجمع الواقع بين عامل عادي وسيدة من أرقى سيدات المجتمع الأعلى؟! ..

وكانت شرويت تتردد كثيرا على الفندق بصحبة زوجها والأصدقاء لقضاء الليالي في الملهى.. وأصبح عبد السميع كأنه ينتظرها في كل ليلة.. ويفتح لها الباب كلما وفدت دون أن يستطيع حرمان عينيه من التعلق بوجهها.. ثم وجد نفسه يضيف ابتسامة مهذبة من ابتساماته الحلوة.. ولكنها كانت تترك السيارة أو تعود إليها كأنها لا تراه

ولا تحس بوجوده حتى كمجرد عامل في خدمتها.. ولكن مع مرور الليالي الطويلة بدأت عيناها تلتقيان بعينيه.. ثم مرت ليال أطول قبل أن يحس بأنها تمنحه ابتسامة ردا على ابتسامته.. مجرد ابتسامة تسري في كيانه كله.. ثم ليال أخرى طويلة عندما سمعها وهو يفتح لها باب السيارة تهمس له من خلال عينيها

وابتسامتها بكلمة واحدة.. شكرا.. وتقولها أحيانا باللغة الفرنسية وأحيانا باللغة الإنجليزية.. ثم مع مرور الليالي كأنهما قد اقتربا من التعارف بدأت تقول له: مساء الخير.. تقولها أيضا بالفرنسية أو الإنجليزية.. ولكنه أوهم نفسه بأن نظرتها إليه بدأت تطول..كأنهما يتعمدان لقاء عابرا بين عيونهما..

وكان قد مر أكثر من عام على هذا اللقاء.. لقاء العيون.. وقد عود نفسه على الاكتفاء بهذا اللقاء.. وإن كانت أحلامه قد بدأت تعوضه عن حرمانه.. ولكنه حتى في أحلامه لم يتجاوز الحب الأفلاطوني.. ولم يحدث أن جمع بين جسديهما حلم ينفث خلاله عن طبيعة رجولته ويتذوق خلاله طبيعة شرويت كامرأة.. إنه تعود الاكتفاء بإحساسه العاطفي يشمل حتى أحلامه..

إلى أن قرأ يوما في مجلة «أخبار الناس» أن زوجها السيد فريد بك الكيالي سيسافر إلى أمريكا.. وأصيب بغصة.. هل ستسافر شرويت مع زوجها؟!.. هل سيحرم من لقاء عينيها وابتسامتها وسماع همستها؟!.. إن المجلة لم تنشر إذا كان فريد بك سيصحب زوجته أم سيسافر وحده..

وبعد بضع ليال تهلل وجه عبد السميع فرحا عندما فتح باب السيارة ورآها أمامه.. وكانت بين مجموعة من الأصدقاء وليس معها زوجها.. وكان اللقاء بينهما أكثر نبضا بالحياة.. إن نظرتها إليه جريئة.. كأنها تجاهر بها أمام الناس.. وابتسامتها تتدفق كأنها شلال من ماء

الورد تصبه عليه.. ووقفت أمامه ومجموعة الأصدقاء تحيط بها.. ولأول مرة يسمعها تتكلم أكثر من مجرد أن تنطق بكلمة.. وقالت له من خلال ابتسامة مرحة:

- هل أنت مصري؟

وقال وهو يبتلع ريقه كأنه يتذوق أحلى قطعة حلوى:

- لم أعد أدري.. هل أنا مصري أو لبناني؟!..

وقالت وهي تبتعد عنه وعيناها لا تزالان معلقتين بعينيه:

- إني أحب مصر..

وابتعدت عنه وهو يتتبعها بعينيه وهي طائرة على خطواتها.. إلى أن دخلت الفندق.. وقضى الساعات وعيناه مبحلقتان في الباب منتظرا أن تعود إليه خارجة.. حتى أنه كان يستقبل الزبائن الوافدين ويفتح لهم أبواب السيارات ورأسه مستدير عنهم ناحية الباب.. وكان يتصور أنها ستعود وتقف معه ليتزود منها بمزيد من انطلاقات عينيها نحوه ومزيد من الابتسام ومزيد من الكلمات.. ولكنها خرجت وهي مشغولة عنه بالتضاحك مع صديقاتها وركبت السيارة دون أن تلتفت إليه، ودون أن تهدأ خطواتها وهي تمر به.. ولكنها بعد أن ركبت أدارت رأسها إليه.. كأنها تذكرت شيئا كانت قد نسيته.. ولم يكن ما نسيته سوى مجرد ابتسامة أطلقتها إليه..

ومضت الأيام والليالي وشرويت لا تعود إليه.. ولا يراها.. وتعمد أن يطوف ببعض مجالات سهر الليالي في

الفنادق الأخرى لعله يراها.. ويطوف بشوارع بيروت باحثا عنها ولو ليراها من بعيد.. ولكنه لم يجدها ولم يرها أبدا.. وقد فكر في أن يتصل بها بالتليفون..

لا شك أنها تعرفه حتى لو اضطر أن يذكرها بنفسه.. وقد سبق أن حادثته وسمعت صوته ولن يكون صوته غريبا عليها في التليفون.. وسيحدثها باللهجة المصرية لأنها تعرف عنه أنه مصري.. رغم أنه أصبح يجيد اللهجة اللبنانية ولا يتحدث إلا بها.. ولكن لا.. إنه لم يتعود أن يلقي بنفسه على أي امرأة حتى ولو بمجرد حديث تليفون.. ثم أن من طبيعته الاستسلام للقدر المكتوب عليه.. والقدر لا يبشر بالجمع بينها وبينه بأكثر من أن يفتح لها باب السيارة إذا وفدت على الفندق.

وقد حدث..

وقفت سيارة أمام الفندق وفتح الباب فإذا بها تملأ عينيه..

وابتسمت له ابتسامة واسعة تتدفق بالفرحة..ونزلت من السيارة واستدارت عن أصدقائها الذين يصحبونها واقتربت منه حتى يكاد جسدها يلامس جسده.. وقالت منطلقة كأنها فوجئت:

- أما زلت هنا..

وقال وعيناه تحتضنها:

- لم أعد أستطيع أن أبتعد عن هنا.. إن هنا لقائي مع أعز من أصبح يشغل حياتي وكياني..

وأطالت النظر بكل عينيها في ملامح وجهه.. كأنها تتذوق وسامته.. وتلعق سماره الرائق..وتغطس في عينيه الواسعتين اللتين يجذبها سواد مقلتيهما إلى حلم مثير.. وأنفه المتعالي كأنه يطل على كل البشر من أعلى.. وشفتيه المكتنزتين كأن كل القوى تجمعت فيهما.. قوى تجذبها في عنف وتقاومها بعنف.. وسمع صوتها يهمس كأنها تحادث نفسها:

- لست أدري..

ثم ابتعدت عنه سريعا ولحقت بأصدقائها إلى داخل الفندق.. ووقف يتتبعها بعينيه وهو يسائل نفسه.. ما هذا الذي لا تدريه؟!.. وكأنه تذكر أنه لم يغلق باب السيارة التي جاءت بها. فالتفت ولم يجد السيارة كلها.. لقد تطوع غيره بغلق بابها وابتعدت.. وعاد ملتفتا إلى باب الفندق في انتظار أن تعود إليه.. إنه يحس أنها في هذه المرة أعطته أكثر..

ولم تمر دقائق حتى وجدها تعود إليه خارجة من الفندق.. واقتربت منه حتى تكاد تلاصقه.. وفاجأته الدهشة حتى لجلجت لسانه، وقال بصوت مرتعش:

- هل أنادي سيارتك؟

وقالت من خلال ابتسامة واسعة:

- إني لم آت بسيارتي.. وقد قررت أن أحملك مسئوليتي وأركب سيارتك..

وانطلق فورا كأنه يلقي بنفسه في جنة النعيم:

- إني لا أملك سيارة.. هل تسمحين أن أحمل مسئوليتك في سيارة تاكسي؟

وقالت ضاحكة ضحكة خافتة يشوبها حياء:

- إني لم أركب سيارة تاكسي أبدا.. فلنجرب..

وشدها من يدها فورا وجرى بها وهو في زيه الرسمي الأنيق الذي منحه له الفندق كعامل يقف على الباب لاستقبال الوافدين.. حتى وصل إلى موقف سيارات التاكسي وزجها في إحداها وقفز وراءها جالسا بجانبها.. كان يحس كأنه يختطفها.. وهي مستسلمة له كأنها تمنحه حق اختطافها هائمة في متعة ومغامرة مثيرة..

وسألها:

- إلى أين؟

ورفعت عينيها إليه كأنها تلومه في دهشة.. فليس من المفروض أن يسألها إلى أين.. إنه خاطفها وهو الذي يقرر أين يأخذها.. ولكن.. لعلها قدرت أنه نوع آخر من الرجال.. فقالت كأنها اكتشفت أنها هي التي يجب أن تتخذ القرار.. وقالت في لهجة كأنها تقاوم بها خيبة الأمل:

- خذني إلى بيتي..

وكان يعرف العنوان من كثرة ما أصبح يعرفه عنها، فألقاه بسرعة إلى أذني السائق، والتفت إليها ويدها لا تزال في يده وقال هامسا والسيارة منطلقة بهما:

- إني منذ التقينا في أول نظرة وأنا أعيش معك وبك..

وأبعدت عينيها عنه ومالت في جلستها، وقالت كأنها تحادث نفسها:

- إني منذ بدأت ألمحك وأنا أحس بقوة عارمة تشدني إليك.. دون أن أدري ما فيك مما يشدني إليك..

وقال وهو يضغط على يدها:

- لقد كنت أعيش كل ليلة في انتظارك.. وعندما تغيبين عني أقضي الليل باحثا عنك في خيالي.. بل إنك غبت عني ليالي طويلة، فكنت أقضي نهاري وليلي أطوف في الشوارع وفي الفنادق وأتطلع إلى كل النوافذ لمجرد أن أراك من بعيد.. فلم يعد خيالي يغطي شوقي إليك..

قالت هامسة وهي ترفع يدها الأخرى وتضعها فوق يده:

- إني بعد أن أصبحت متعلقة بلمحاتك كنت أتعمد أن أدعو اصدقائي إلى قضاء السهرات في هذا الفندق.. حتى أمر برؤياك.. ولكني بدأت أحس بإلحاح عنيف يسيطر عليّ ويشدني إليك.. فقررت أن أقاوم.. أي أقاوم رؤياك.. وأرفض أي دعوة إلى هذا الفندق.. بل بدأت أشهّر به وأقول عنه إنه فندق كل ما فيه مفتعل.. ولياليه تخنق رواده بالرسميات.. إلى أن كانت الليلة.. ولم أستطع أن أستمر في المقاومة.. وكنت أنا التي اختارت أن يقضي الأصدقاء سهرتهم في هذا الفندق.. لأراك.. ولكن رؤياك العابرة لم تعد تكفي.. ولم أكد أبتعد

عنك وأنزوي مع أصدقائي حتى وجدت نفسي أعتذر لهم.. وأتركهم.. وأعود إليك.. وقد قررت الاستسلام!..

وهو يسائل نفسه.. ماذا تعني باستسلامها؟!

والحديث الهامس لا ينتهي.. وكل منهما يعتقد أنه لم يقل بعد كل ما يجب أن يقوله..

إلى أن وصلت بهما سيارة التاكسي إلى البيت..إنه أقرب إلى قصر في حي راق بأطراف المدينة.. وسبقها إلى النزول من السيارة بسرعة ووقف ممسكا بالباب مفتوحا كعادته وهو يؤدي عمله على باب الفندق.. وكان واقفا حائرا مع الكلمة التي يقولها مودعا.. ولكنها سبقته قائلة:

- تعال معي.. إنك مدعو إلى كأس..

وبسرعة مد يده إلى جيبه ودفع للسائق ثمن المشوار من قيمة البقاشيش التي زوده بها الوافدون على الفندق في هذه الليلة.. ولحق بها إلى داخل البيت.. وهو لا يتلفت ليرى قطع الأثاث الهائل في فخامته.. ولا التحف الثمينة الغالية التي يمر بها وتزدحم بها كل غرفة.. لا يرى ولا يحس إلا بها وهو يتبعها في خطواتها.. وقد مرت به في صالون واسع.. ثم صالون آخر.. ثم دخلت به إلى غرفة جانبية وخلعت معطفها وألقت به على الأرض..ثم ألقت بنفسها على أريكة واسعة مغطاة بالقطيفة.. وأشارت إليه أن يجلس بجانبها.. وجلس وعيناه يضمانها كلها.. وحاول أن يتكلم رغم أنه لا يدري

ماذا يقول.. ولكنها رفعت أصبعها ووضعته على شفتيه كأنها تسكته وقالت وهي تقترب منه أكثر:

- لا تتكلم ودعني أعيش هذه الملامح التي لم أستطع مقاومتها..

وفجأة وجد شفتيها بين شفتيه..

إنها أول قبلة لمرأة تصل إليه.. فقد كانت القبلات مجرد أوهام

لا يتصورها إلا في أحلام تنتابه وهو نائم.. وكأن هذه القبلة التي

لا تنتهي قد حولته إلى إنسان آخر لم يكن هو نفسه يعرفه.. هل هذا الإنسان الجديد عليه يعتبر شريرا؟!.. إن أصابعه تمتد بعنف قاس إلى كل نواحي جسد شرويت.. والثوب الذي يتعجل نزعه عنها يكاد يمزقه.. ولم تعد القبلة قبلتها هي فقد أصبحت قبلته هو.. وهو لا يدري هل هو يقبلها أم يأكلها؟!.. ولم يعد يأبه بالشر أو الخير.. إنه يعيش كل لحظات وجد نفسه فيها.. وهي مستمرة في التأوه.. تأوهات كأنها مصمصة المتعة بما تأكله ويسري في كل كيانها!..

وكان الفجر قد بدأ يشرق..

وهو عار!..

وهي عارية!..

وجذبت نفسها من بين ذراعيه.. وقد كانت في حاجة إلى قوتها وحيوتها لتجذب نفسها خارج القوة التي تضمها.. ووقفت تغطي جسدها العاري وهي تقول له:

- يجب أن تذهب الآن.. فقد اقترب موعد دخول الخدم..

واعتدل جالسا يلتقط زفراته وأنفاسه اللاهثة، ثم وقف يرتدي ثيابه قائلا.. وقد تغيرت لهجته.. بل تغير حتى صوته.. لقد اصبح الآن صاحب حق.. قال دون أن يلتفت إليها كأنه يفرض إرادته:

- متى أراك؟

وقالت بابتسامة حزينة:

- لا أدري.. ربما بعد أسبوع.. وربما بعد شهر.. وربما بعد سنة.. لا أدري..

وقال كأنه ينهرها:

- إني لا أعتقد أني أستطيع أن أعيش الانتظار الذي كنت أعيشه..

وقالت وهي تتنهد في استسلام:

- إني مسافرة هذا الصباح إلى أمريكا لألحق بزوجي.. ولا أدري مصيري هناك ولا مصيري معه..

وصاح كأنه أصيب بطعنة:

- مستحيل.. لن تكون لي حياة دون أن تكوني فيها.. لن تسافري..

وقالت كأنها تعترف:

- إني لم أستسلم لك إلا لأني مسافرة..

وصاح عاجلا:

- سأسافر معك.. أو سأسافر إليك!..

وقالت وهي تقترب منه وتربت على صدره كأنه تهدئه وترجوه:

- إننا لم نجتمع أبدا على أي اتفاق.. كان القدر العابر هو الذي جمعنا وهو الذي يفرقنا.. فدعنا ملك القدر مكتفين بنصيبنا منه..

وأحس بنفسه كأنه يفيق من هذه الشخصية الجديدة التي عاشها بين شفتي شرويت.. ووجد نفسه يعود إلى شخصيته القديمة الهادئة الذكية المترفعة.. وقال كأنه يستسلم:

- فعلا.. ليس أنت ولا أنا.. إنه القدر المكتوب.. ولكنك إذا غبت عني فإني سأنتظر منك خطابا لأنك ستبقين دائما معي..

وعادت شرويت تقول:

- لا أدري أيضا.. لا أستطيع أن أعدك بأي قرار.. قد أكتب لك وقد لا أكتب.. دعنا لما يدفعنا إليه القدر..

وكان قد انتهى من ارتداء ثيابه واتجه إلى باب الخروج.. وهي
لا تستوقفه ولو لتعد له الكأس التي وعدته بها ولم تقدمها حتى الآن..

ووقفا عند الباب كأنهما حائران.. هل يتبادلان قبلة الوداع أم يكون وداعا بلا قبلات؟!.. ولم يمد أحدهما شفتيه إلى الآخر.. ولا حتى اجتمعت يدها بيده في مصافحة.. ولكنها قبل أن تغلق الباب وراءه سألته من خلال ضحكة خافتة:

- ما هو اسمك؟

وابتسم كأنه يرثي نفسه بابتسامة:

- عبد السميع.. عبد السميع منصور.. إني عرفت اسمك بمجرد أن التقيت بك في نظرة.. شرويت..

وقالت كأنها تواسيه:

- كان من السهل أن تعرف اسمي دون أن تسألني.. أما اسمك!! أوريفوار سميع!..

* * *

ولم يعد عبد السميع إلى مسكنه ولو ليستريح من هذه التجربة الجديدة التي مرت به وأنهكته.. ولكنه ظل يجوب الشوارع متطلعا بين الحين والآخر إلى السماء، كانه يحاول أن يرى شرويت وهي في الطائرة التي تقلها إلى أمريكا.. وفي المساء عاد إلى عمله في الفندق واستقبله المسئولون بتحقيق ساخط، فقد ترك عمله خلال الليلة التي مضت دون إذن.. وقد استطاع بلباقته واختيار كلماته أن يقنعهم بأنه كان مضطرا اضطرارا فوق طاقته لم يتح له حتى الاستئذان.. كما أن المسئولين تغلب عليهم تقديرهم لوسامته ورشاقة قوامه مما يحقق مظهرا جذابا لكل الوافدين على الفندق.. فوقعوا على مرتبه خصما بسيطا وتركوه مستمرا في عمله..

وقد جد عليه تعود رفع رأسه إلى السماء متتبعا الطائرات لعل إحداها تكون عائدة بشرويت..كما أنه ازداد إدمانا لتتبع أخبار وصور شخصيات المجتمع

اللبناني الراقي التي تنشر في الصحف، ولكن كل الصحف لم تعد تنشر شيئا عن شرويت بعد أن نشرت خبر سفرها للحاق بزوجها في أمريكا.. حتى ولا مجلة «أخبار الناس».. وكأن شرويت قد انتهت من الوجود!..

ولكن شرويت لم تنته بالنسبة له.. إنه لا يزال كل أيامه.. نهاره ولياليه معها.. وبدأ يتعذب بالشوق إليها بعد أن مر بتجربته معها.. حتى أنه بعد أن اشتد به الشوق خلال الشهور، بدأ يحاول أن يستعيض عن تجربته مع شرويت بتجارب مع نساء أخريات.. لقد بدأت الشخصية الأخرى التي ثارت فيه بعد أن عاش قبلات شرويت تعود إلى السيطرة عليه وتدفعه إلى الأخريات.. ويحس وهو مع كل امرأة كأنه يبحث فيها عن شرويت.

وقد مر عليه أكثر من عام وهو لا يستطيع أن يلتقي بشرويت ولو في خبر تنشره إحدى الصحف.. ولا بأن تجود عليه بخطاب ترسله إليه.. وهو يحس بأنه ينهار إلى مزيد من الانهيار.. ولكن شخصيته لا تزال تلح عليه بأن يقاوم.. إلى أن وجد أنه لن يستطيع المقاومة إلا إذا عاش حياة أخرى تبدأ بأن يتزوج.. وفجأة قرر أن يعود إلى مصر ويتزوج..

وبعد وصوله بأيام كان بدافع إلحاحه على أفراد عائلته قد تزوج سعاد.. وقد اختارها بمقاييس صحيحة قدرت شخصيتها وكل ما يحيط بها.. إن سعاد فعلا زوجة كاملة رائعة حتى أنها دفعته إلى الإقامة في مصر

بعد أن وجد فيها عملا كريما مجديا.. ولكنها لم ت نسيه شرويت.. إنه حتى في ليلة زفافه كان يعيش ليلته التي قضاها مع شرويت.. كما أنه أدمن شراء مجلة «أخبار الناس» كل يوم اثنين من كل أسبوع، على أمل أن يجد فيها خبرا مكتوبا عن شرويت أو صورة لها!..

* * *

وقد مر الآن على عودته من بيروت أكثر من ثلاثين عاما.. وعاد إلى بيته يوم الاثنين وهو يحمل مجلة «أخبار الناس» وفتح صفحات الأخبار الاجتماعية.. فانطلقت عيناه جاحظة.. لقد وجد في المجلة صورة امرأة عجوز مكتوب عنها أنها عادت أخيرا إلى بيروت لزيارة وطنها وما بقي من عائلتها.. إنها صورتها رغم كل خطوط الشيخوخة التي تبدو فيها.. ورغم الشعر الأبيض الذي يغطي رأسها إلا أنه عرفها من أول لمحة.. إنها شرويت.. إنها الآن في بيروت.. ويستطيع أن يخطف رجله إليها.. ولو ليراها من بعيد كما تعود في شبابه أن يراها قبل أن تجمعهما ليلة القدر.. ولكن.. إن بيروت تعيش معركة قتال منذ أكثر من عشرة سنوات.. كيف يستطيع أن يصل إليها؟!.. وكيف يعيش فيها؟!.. إنه لن يستطيع حتى المرور في الشوارع التي تعود أن يبحث فيها عن شرويت.. إن بيروت لم تعد قادرة على استقبال أي لحظة حب!..

وأمسك بالمقص وأخذ يقص من المجلة صورة شرويت العجوز، ليضمها إلى صور شرويت الشابة التي

كان يقصها من الصحف أيام زمان ولا يزال يحتفظ بها!..

وزوجته سعاد تكرر صياحها إليه:

- الغداء يا سميع.. ما بك اليوم؟!.. لقد تأخرت..

ووضع صورة شرويت التي قصها من الجريدة جانبا وقام لتناول الغداء.. وكانت زوجته سعاد قد اقتربت منه لتشده فلمحت الصورة ورفعتها تبلحق فيها قائلة:

- من هذه؟!

وقال عبد السميع وهو يتنهد:

- إنها السيدة التي منحتني أسعد لحظة في حياتي!..

وقال سعاد وهي تلوي شفتيها:

- إنها عجوز..

وقال سميع كأنه يتأوه:

- حتى وهي عجوز أتمنى أن تمنحني لحظة أخرى!..

وهمت زوجته سعاد أن تطوي الصورة في يدها وتقذف بها في مخزن المهملات.. ولكن عبد السميع قبض على يدها في عنف وأخذ منها الصورة واتجه إلى مكتبه ووضعها في الدرج الخاص به والذي يحتفظ بمفتاحه دائما معه..

وضحكت الزوجة العاقلة وشدته من يده إلى مائدة الغداء..

وعاد بعد الغداء يفتح الدرج..

درج الذكريات!..

وطردتني من حياتها

لم تجمعهما قصة حب.. ولكن جمعهما لقاء في مجتمع ضم عددا كبيرا من الأصدقاء والصديقات.. وربما التقت نظراتهما من بعيد فقرر كل منهما أن يتزوج الآخر!..

والنظرة الأولى لا تكفي للوقوع في الحب.. ولكنها قد تكفي لتجاوب الإعجاب.. وتُحرك العقل في مجموعة من الحسابات قد تكفي لاتخاذ قرار بالزواج.. وهو يعلم منذ النظرة الأولى أنها أرملة.. وقد مضت ثلاث سنوات على وفاة زوجها في حادث.. وكانت قد أنجبت طفلا لعله الآن في السادسة أو السابعة من عمره.. ولكنها لا تزال محتفظة بكل شبابها ونضارتها وجاذبيتها كأنثى.. لعلها لم تتعد الثلاثين من عمرها.. والمهم أنها تمتاز بحيوية تفرض وجودها على أي مجتمع تظهر فيه.. وجود محترم.. وكل المدعوين نساء ورجالا يلتفون حولها.. وتستطيع أن تجد دائما ما يجمعها لحظات بين كل منهم.. وإن كان قد لاحظ أنها تمر بها لحظات تتعمد هي أن تتقرب من البعيد عنها.. خصوصا من المدعوات النساء..

ومن الطبيعي ألا يتهافت النساء عليها تهافت الرجال.. ولكنها تتعمد ألا تقف وحدها بين الرجال، فإذا مرت لحظة وجدت نفسها وحدها مع رجل سعت إلى اجتذاب واحدة من المدعوات لتكون معها.. لعلها حريصة وهي أرملة أن تحمي نفسها من نيات الرجال

التي قد تدفعهم إلى التجرؤ عليها بكلمات.. كما تحمي نفسها من مجرد الإشاعات والهمسات.. لا شك أنها ذكية تستطيع أن تحمي نفسها وهي أرملة بلا زوج يحميها أو على الأقل يغطي ضعفها..

وهي قد جمعتها به نظرتها من بعيد.. وتحركت في عقلها فورا مجموعة من الحسابات.. فهي تعرف أنه ليس متزوجا رغم أنه في السن التي يجب أن يكون متزوجا فيها.. لعله في الرابعة أو الخامسة والثلاثين وربما أكثر.. وهو ليس معروفا بأنه ثري في منتهى الثراء ورث ثراءه عن أهله.. ولكنه معروف بأنه رجل ناجح.. ناجح في عمله.. وناجح في شخصيته التي يعيش بها في المجتمع.. لا يقال عنه شيء مما يقال عن أمثاله من الرجال العزب الذين يعيشون بلا زواج.. وقد لا يكون في منتهى الوسامة بحيث يعتمد على وسامته في اجتذاب البنات والنساء، ولكنه في هدوئه جاذبية تكفي لجذب الهادئات..

وهي تعرف أن كثيرا من العائلات تتمنى أن تستولي عليه كزوج لابنة من بناتها.. بل تعرف أن كثيرات أقدمن بأنفسهن على المحاولة.. ولكنه لا يتزوج.. لا تدري لماذا؟!.. هل يخفي نقصا فيه يحرمه من الزواج.. أو أنه لم يجد بعد من تقنعه بالزواج؟!.. إنها لا تدري.. وهي نفسها لم تفكر في الزواج به أو بغيره.. إنها زوجة لغريب عن ابنها.. وقد بدأت هذه العقدة في إحساسها وهي تنظر إليه من بعيد.. ولم تكن نظرة تعبر عن قرار اتخذته

ولكنها تعبر عن عقدة نفسية تعاني منها بوحدتها مع ابنها.. وتحس كأنها يمكن أن تتخلص من هذه العقدة..

وتعددت النظرات التي تجمعهما من بعيد إلى أن اجتمعا بين عدد من المدعوين.. وكان حديثا عاما في الموضوعات العامة كما هي العادة.. ولكنه أحس بأنه يتحدث أكثر مما تعود، بل إنه يتعمد أن يكون الحديث له وحده دون بقية الرجال المحيطين به.. كأنه وحده صاحب الحق في أن تسمعه زينب.. هو ليس مركزا عينيه عليها وحدها ولكنه يحس بأنه يتحدث لها وحدها.. وهو ليس مركزا عينيه عليها وحدها ولكنه يحس بأنه يتحدث لها وحدها.. وهي تحس كأنها مبهورة بحديثه.. كأنه حديث عالم من العلماء يزودها بكثير مما لم تكن تعلمه عن المجتمع.. ثم إن في حديثه كثيرا من الملاحظات التي تثير الضحك والابتسام.. إنه فعلا خفيف الدم.. وكان لا يكاد ينتهي من حديث حتى تلاحقه بسؤال آخر يتحدث فيه، كأنها لا تريد أن تسمع أي حديث من رجل آخر!..

وانفض المدعوون الذين كانوا معهما انفضاضا طبيعيا.. أي لم يبتعد أحد كأنه لاحظ أن كلا منهما يريد الاستئثار بالآخر.. ووجدا نفسيهما وحيدين.. كل منهما للآخر.. ولم تحاول كعادتها الاستغاثة بأحد من بقية المدعوين والمدعوات حتى لا تقف وحدها مع رجل وهي أرملة.. واستمر الحديث بينهما وهي تزيده من الأسئلة العامة التي تتطلب إجابات طويلة.. كأنها لا تريد

أن ينتهي من التحدث إليها.. إلى أن قطع حديثه قبل أن ينتهي من موضوعه، وقال لها في صوت هادئ مرتعش كأنه يتنهد:

- هل أستطيع أن أحادثك في التليفون غدا؟

واتسعت عيناها في دهشة وحيرة ثم قالت ضاحكة:

- ولكن لا تسألني عن رقم التليفون حتى لا أتحمل معك المسئولية..

وابتعدت عنه فورا وانضمت إلى بقية المدعوين..

* * *

وفي صباح اليوم التالي كانت في انتظاره بجانب التليفون.. ولكن التليفون دَق رنينه مبكرا.. لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة.. وابتسمت ابتسامة تحمل مع فرحتها بعض اللوم.. كأنها تلومه لأنه دق لها الجرس قبل أن تنتهي من شرب فنجان قهوة الصباح.. وقال لها فورا دون أن يقدم لها نفسه كأنه كان واثقا أنها تعرفه بمجرد سماع صوته:

- لقد مضى عليّ عمرا طويلا ولست مقتنعا بالزواج.. ولكني أخيرا اقتنعت..

وقالت وقلبها يخلف مع ابتسامتها:

- من أقنعتك بالزواج؟

وقال بسرعة:

- طبعا أنتِ.. ألم تقتنعي كما اقتنعت؟

قالت وقلبها يشتد خفاقانا:

- لعلنا في حاجة إلى أن يعرف أحدنا الآخر أكثر حتى يستكمل اقتناعه..

وقال في صوته الهادئ وفي لهجة أستاذ:

- إن المعرفة لا تتم إلا بعد الزواج.. أما قبل الزواج فلا يصل أحدنا إلا إلى معلومات عن الآخر.. ولديّ معلومات كافية عنك ولا شك أن لديك معلومات كافية عني.. إننا نعيش مجتمعا واحدا حتى لو كنا لم نلتق من قبل.. وقد سمعت عنك الكثير.. ولا شك أنك سمعت عني أكثر.. ولم يبق إلا أن يعرف أحدنا الآخر بعد أن تجمعنا حياة واحدة.. أي بعد الزواج..

وهي تستمع إليه كأنها هائمة.. وعقلها مشتت في سوق واسعة من الأفكار.. إلى أن خطر على بالها سؤال.. كأنها قررت أن تبدأ التحقيق معه:

- من أين حصلت على رقم تليفوني؟

وقال في بساطة كأنه واثق من براءته:

- حصلت عليه من صديقتك خيرية.. إن معلوماتي تؤكد أن خيرية أقرب صديقاتك.. ولذلك قلت لها أيضا لماذا أريد رقم تليفونك.. لأتزوجك..

وقالت بسرعة كأنها تتعجل أن تخلو بنفسها حتى تفكر في هذه المفاجأة المذهلة:

- إذن لنلتق عند خيرية اليوم.. في الساعة السادسة.. ونشرب الشاي..

قال بإلحاح..

- ولكن هل اقتنعت؟

قالت كأنها تتنهد:

ستری ردي في عينيّ عندما نلتقي..

قال كأنه يتنهد:

- أرجو أن تقدم خيرية الشاي لك ولي في فنجان واحدا!..

وهمست في صوت متحشرج:

- إلى اللقاء..

ووضعت سماعة التليفون.. ثم عادت ورفعتها واتصلت بصديقتها خيرية.. وقضيا الساعات في حديث لا ينتهي.. إن صديقتها تنصحها بالزواج من أحمد.. وهي نفسها تريد هذا الزواج رغم كل ما تثيره من مشكلات.. وانتهى الحديث وقامت تعد نفسها لموعد اللقاء.. ولأول مرة منذ سنوات تقفز هذه القفزات بين الحمام وغرفتها.. ولأول مرة تعيد تسريحة شعرها كل هذه المرات.. وتعيد وضع الكحل فوق عينيها.. ووضع الروج على شفتيها.. وتحتار كل هذه الحيرة أمام أثوابها المعلقة في الدولاب.. إنها ترسم من نفسها عروسا تجمع بين كل ما تزهو به العروس!..

وبعد أن انتهت من إعداد نفسها لهذا اللقاء.. صمتت تفكر كأنها دهمتها مفاجأة.. ثم جرت وأمسكت بابنها هاني وأخذت تعده هو الآخر للخروج معها.. والصبي يرفض ويقاوم.. إنه يريد أ ن يبقى أمام التليفزيون.. ولكنها كانت تضغط عليه برفق وتغريه بأنها ستأخذه ليلعب مع أصدقائه أولاد خيرية.. وهي مصممة على أن

يكون معها.. إنه رجلها.. وإذا كان أحمد يريد أن يتزوجها فيجب أن يطلبها من ابنها.. أو على الأقل يجب أن يراه ويعرفه.. يراه كما يراها هي.. كما يرى عينيها وأنفها وشفتيها وقوامها.. فابنها قطعة منها..

وفوجئ أحمد عندما دخلت إليه زينب وابنها هاني بجانبها.. ولكنه ابتسم سعيدا بينه وبين نفسه.. فلا شك انها قد وافقت على الزواج ما دامت قد جاءت بابنها ليعرفه.. وقد مر الصبي هاني بخيرية وزوجها وترك كل منهما يقبله.. ولكنه عندما حاول أحمد أن ينحني ويقبله ابتعد عنه نافرا.. إنه لا يعرفه فلماذا يمنحه حق تقبيله.. إنه صبي نفور لا يعطي إلا إذا كان مضطرا للعطاء..

وأسرعت سيدة البيت وجمعت هاني مع أولادها وحدهم في غرفة منفصلة يلعبون فيها.. وانزوى الكبار يتحدثون في هدوء في ظلال سعادة الفرحة.. وكل شيء يتم الاتفاق عليه بسرعة ويصل إلى التفاصيل.. إن الزواج سيتم بعد شهرين ولن يقام له حفل كبير فالعروس أرمل.. وليس من حقها أن تتحدى المرحوم وتقيم حفلا صاخبا كأنها تعايره وتشمت فيه بعد أن وجدت رجلا آخر.. وسيتم استدعاء المأذون في جلسة عائلية ضيقة لا تضم من الغرباء سوى خيرية وزوجها..

ولكن أين يكون بيت الزوجية؟

إن أحمد يقيم الآن مع أمه وأخيه الأصغر.. ولكنه وجد شقة في عمارة جديدة قرر أن يشتريها.. وكان

مترددا في كتابة عقد الشراء لأنه لم يكن قد قرر الزواج بعد.. ولكنه سيوقع العقد غدا..

وقالت زينب في إصرار صادق:

- لماذا تشتري شقة؟!.. إني أُقيم وحدي في شقة.. ثلاث غرف نوم والصالة وغرفة ا لمائدة والأنتريه.. وأُقيم فيها وحدي مع هاني.. ونكاد نتوه فيها نحن الاثنان..

وحاول أحمد أن يجادلها.. إنه في قرارة نفسه يفضل أن تكون الشقة ملكا له.. ملكا لرجل البيت.. والشقة التي تقيم فيها زينب الآن لا شك أنها تحمل اسم زوجها السابق المرحوم.. وقد أصبحت ملكا لابنه ووريثه.. وسيعيش فيها كأنه ضيف غريب..

ولكن زينب مصرة على أن تكون زوجة جديدة في شقة الزوجية السابقة القديمة.. وصديقتها خيرية تؤيدها.. إن أي شقة جديدة لن تكون في فخامة وروعة واتساع أي شقة قديمة.. وليس مهمّا أن تكون ملكية الشقة باسم من.. فهما بعد أن يتزوجا لا يعيشان في شقة بل يعيش كل منهما داخل الآخر!..

وقال أحمد وهو محتفظ بهدوئه وبفرحته بالزواج:

- إذن.. توافق زينب على أن أشتري منها الشقة.. كمجرد احتفاظ بالتقاليد..

وصاحت زينب فورا:

- لا.. إني أحتفظ بها لابني هاني ليتزوج فيها بإذن الله.. ويقيم معنا هو وزوجته كما عاش عمره معي..

وقال أحمد كأنه يتعجل نهاية هذا الجدل:

- موافق.. وقد كان ثمن الشقة التي سأشتريها ستة وعشرين ألف جنيه.. وسأضع هذا المبلغ لك..

وأحنت زينب رأسها في صمت باسم كأنها تعجز عن شكره..

واستطرد أحمد قائلا وهو يبتسم ابتسامة رجاء:

- ولكن.. بما إننا لسنا في حاجة إلى شقة جديدة، فلماذا يتم الزواج بعد شهرين.. لماذا لا يتم بعد أسبوعين؟

وظلت زينب تبتسم صامتة ابتسامة حياء العذارى.. وكانت صديقتها خيرية هي التي أعلنت نيابة عنها أن يتم الزواج بعد أسبوعين..

وعندما ذهب أحمد لزيارة زينب في شقتها.. مساء اليوم التالي.. تذكر وهو على الباب أنه نسي ابنها هاني، ولم يحمل له هدية بجانب الهداية التي حملها للعروس.. فعاد وذهب إلى السوق واشترى للصبي هدية فخمة.. إنه لا يعرف ماذا يريد الأطفال وما يفضلونه من لعب؟!.. ولكنه لا شك سيفرح بهذه الهدية فإن ثمنها غال.. أغلى ما وجده في دكان اللعب.. ولكنه لم ير الصبي هاني.. واعتذرت أمه بأنه على فراش النوم..

وكان كل مساء في زيارة زينب.. وقد رأى هاني مرة من بعيد وسمع صوته من داخل البيت.. ولكنه لم يجد الفرصة ليجرب نفسه معه.. ويبدأ في تجربة أن يكون أبا له..

ولكن لقاءه مع زينب في هذه الأمسيات الطويلة كان ينسيه كل شيء.. ويحصر إحساسه في عشقه لها.. وقد تم الزواج بعد أسبوع واحد لا بعد أسبوعين..

وكانت زينب قد قررت أن ترسل ابنها هاني ليقيم مع أمها حتى تتفرغ لقضاء شهر العسل مع زوجها في الإسكندرية.. وكانت تتصل به كل يوم بالتليفون.. وبعد يومين بدأت تتصل به كل يوم مرتين.. تطمئن عليه بعد أن يصحو من النوم.. وتطمئن عليه قبل أن ينام في المساء.. ولكنها لم تعد تستطيع أن تطمئن عليه وهو في رعاية أمها.. وهو نفسه يبكي كلما حادثته.. يريد أن يكون معها في الإسكندرية أو تأتي إليه في القاهرة.. وزوجها أحمد بدأ يحس ببعض الضيق لشدة انشغالها بالتفكير ابنها.. إنها لا تكف عن الحديث عنه سواء بمناسبة أو بلا مناسبة.. بل خيل إليه مرة وهي بين أحضانه على فراش الزوجية، أنها تركت له جسدها بينما شت عقلها وإحساسها بعيدا عنه.. لعلها طارت بعقلها إلى ابنها.. وبدأ يحس كأنه يغار من هذا المخلوق الذي يأخذ منه زوجته حتى وهي بين أحضانه.. ولكن زوجته معذورة.. إنه ابنها..

ولم تنقض أيام من شهر العسل حتى استطاعت زينب أن تقنع زوجها أحمد بالعودة إلى القاهرة.. وشهر العسل يستمر سواء هنا أو هناك.. إنه ليس مجرد شهر العسل إنه عمر العسل.. وقد استجاب زوجها بسرعة.. إن لها

حقا.. فهما لا يستطيعان تذوق العسل إلا مع استكمال كيانهما كله.. وابنها هاني يدخل في هذا الكيان..

وقد بدأ الزوج منذ اليوم الأول يتعمد أن يبذل مجهودا لتقريب الابن إليه واكتساب حبه.. كان يحمل إليه دائما مع عودته إلى البيت هدية.. ويسأله قبل أن يخرج إلى عمله.. ماذا يريد اليوم أن يشتري له.. ولكن هاني مستمر في نفوره منه.. إنه يخطف الهدية من يده ويجري إلى حيث يختلي بها.. وأحيانا تعود به أمه إليه وهو يحمل الهدية وهي تنهره قائلة:

- قل لبابا.. شكرا يا بابا..

ويقول الطفل كأنه يبصق كلماته.. شكرا.. ثم يصدر له خده ليطبع عليه قبلة دون أن يبادله بقبلة منه..

وحتى لقب «بابا» الذي فرض على الصبي هاني أن يناديه به.. كان لا يلفظ به إلا نادرا.. ومجبرا.. كأنه لا يؤمن بأن زوج أمه يستحق لقب بابا.. بل لا يريد أن يترك أمه له.. حتى أنه كان كلما شاهدها جالسة ملتصقة بزوجها تعمد أن يلقي بنفسه عليهما،و يحشر نفسه بالجلوس بينهما كأنه يفرق بينهما!..

ورغم ذلك فهو لايزال يحاول أن يكتسب هذا الابن.. وهو يذكر أن هاني دخل مرة البيت وهو يبكي.. وقال إن ابن الجيران الأكبر منه قد ضربه.. فتحمس أحمد وأراد أن يقنع هاني بأنه يحميه ويسترد له شرفه وهيبته بين الأطفال.. وحمل عصاه وهو يصيح:

- تعال أرني هذا الذي ضربك..

وانطلق معه الابن هاني فرحا وخرجا إلى الشارع.. ولكنهما لم يجدا فيه أحدا من الأولاد.. وسأل الزوج أحمد حتى عرف من ضرب هاني وصحبه إلى بيته واجتمع والد المعتدي واستطاع أن يصفي معه المعركة التي دارت بين الأطفال.. وتم التصالح.. وجاء الابن المعتدي يعتذر ويصافح هاني ويقبل أحمد زوج أمه.. بينما دفع أحمد بهاني ليصافح هو الآخر من اعتدى عليه ويقبل والده.. وما كاد يخرج به من البيت حتى انطلق الطفل هاني يبكي.. إنه لم يكن يريد أن يصالح عدوه.. وربما كان ينتظر أن ينهال زوج أمه بالعصا التي يحملها ضربا في خصمه انتقاما له.. ثم ما كاد يصل إلى أمه حتى ألقى بنفسه عليها مستمرا في البكاء.. ومرت أيام وهو في خصام تام مع زوج أمه الذي يحمل لقب بابا.. وربما تحمل أحمد عناد ونفور ابن زوجته لأنه أقنع نفسه أنه كان مخطأ في التدخل بشخصه في هذه المشكلة.. فليس بين الأطفال صلح أو خصام كالذي يقوم بين الآباء.. إن كل ما يدور بينهم من معارك مجرد ألعاب.. شقاوة.. ولكنه معذور فهو لم يكن أبا.. وليس أبا حتى الآن!..

وهاني يكبر.. وهو طالب فاشل في الدراسة.. وقد حاول زوج أمه أن يعينه على النجاح، بأن يتولى بنفسه مراجعة دروسه وأداء واجبات المدرسة بعد أن عجزت أمه عن الإشراف عليه.. واقتنعت الأم بأن زوجها يمنح ابنها فضلا كبيرا بمراجعته في دروسه ودفعته إلى أن

يرضخ للجلوس معه.. ولكن منذ الجلسة الأولى وهاني يتعمد بعد دقائق إثارة مشاكل تنتهي به إلى افتعال البكاء والهروب من جلسة الدراسة.. وأعصاب أحمد لا تحتمل.. وقد جرب كل الوسائل لاحتمال هذا الصبي ولكنه فشل.. فعدل عن الإشراف على التدريس له وعاد وتركه إلى أمه..

وهاني يكبر أكثر.. وكان في الرابعة عشرة من عمره عندما مرت ليلة وهو لا يعود إلى البيت.. وأمه وزوجها أحمد في انتظاره.. إلى أن وصلت الساعة إلى ما بعد منتصف الليل.. ودق جرس الباب وقام أحمد ملهوفا ليفتحه.. وإذا به يفاجأ بهاني واقفا أمامه وبين شفتيه ابتسامة مترنحة كأنه سكران.. فصرخ في وجهه:

- أين كنت؟!

وأجاب هاني بكلمات متعثرة:

- كنت مع أصدقائي.. ما لك أنت..

وصرخ أحمد:

- ما لي يا ولد يا ضائع.. أنا أبوك حتى لو كنت أبوك غصبا عنك..

ورفع كفه وأسقطها في صفعة عنيفة على صدغ هاني.. وكانت أمه قد وصلت إليهما فصرخت:

- لا تضربه.. إياك أن تضربه..

ثم جذبت ابنها إلى غرفته وقضت الليل كله معه راقدة على فراشه.. وقد تركت زوجها ينام وحده.. وفي

الصباح التالي جاءت إليه وقالت في بساطة وبلهجة حازمة كأنه لم يحدث شيء:

- إن هاني قد كبر.. ويجب أن يحمل مفتاحا للبيت..

ووصل أحمد إلى قمة اليأس.. وقد عود نفسه أن يزداد استسلاما كلما ازداد يأسه.. ولم يعد يعتبر نفسه مسئولا عن مستقبل هذا الولد..

وكان منذ البداية في انتظار أن ينجب من زينب.. إنه لو أنجب منها فستحل مشكلة انفرادها بابن.. وسيؤكد حقه في الإشراف على ابنها بالإشراف على ابنه..ولكن مر عام ثم عام.. وأعوام.. وزينب لا تنجب منه.. وهو لا يستطيع أن يتهمها بالعجز عن الإنجاب.. فقد أنجبت.. ربما كان هو العاجز عن الإنجاب.. وقد ذهب فعلا إلى طبيب لعله يكتشف فيه سر عجزه.. ولكن الطبيب قال له كلاما عائما يحمل كل الاحتمالات.. فقد ينجب وقد لا ينجب.. وقد داخله الشك مرة في أن زوجته زينب تتعمد عدم الإنجاب منه.. ربما تواظب على تناول حبوب منع الحمل سرا.. وقد انتهز فرصة غيابها وأخذ يبحث في كل الأدراج وفي كل خبايا البيت عن هذه الحبوب ، فلم يجد منها شيئا.. وكان يجاهرها بأمنيته وهما على الفراش:

- أتمنى ابنا.. متى؟ هذه المرة لابننا..

وكانت تجيب وهي تلفه بابتسامتها المثيرة:

- إن لدينا هاني.. أليس ابنك؟!

ويهرب داخل ابتسامتها من إجابتها.. إنه لا يستطيع أن يشعر بهاني كابن ولا أن يشعر بنفسه كأب.. وكان أحيانا يقنع نفسه ساخرا من كل حياته بأنه متزوج من اثنتين.. زينب الزوجة وزينب الأم.. والشرع يحتم عليه أن يعدل بين اثنتين.. بين الزوجة والأم.. أو ربما كانت زينب هي المتزوجة من اثنين.. زوجها وابنها.. أحمد وهاني..وهي

لا شك تبذل مجهودا كبيرا في العدل بينهما.. وإن كان كل منهما يحس بأنها تعطي من نفسها للآخر أكثر مما تعطيه!..

هكذا كان يعيش مستسلما.. وكل أمله هو أن يتحمل يأسه!..

* * *

وكانت قد مرت بهما خمسة عشر عاما..

وقد كبر هاني وأصبح في الثانية والعشرين من عمره..وهو

لا يزال طالبا في الجامعة ولا يبدو أنه سينتهي منها أبدا.. وليس هناك أي علامة تعين على تحديد أي مستقبل له.. ومن يدري؟!.. إن مستقبل أي إنسان لم تعد تحدده علامات..

إلى أن فاجأته زوجته يوما قائلة من خلال ابتسامتها التي فقدت

ما كان فيها من إثارة:

- أحمد..حبيبي.. يجب أن تبحث لنا عن شقة.. وبسرعة..

وقال في دهشة:

- لماذا.. ما حاجتنا إلى شقة؟!

وقالت في بساطة كأنها لا تواجهه بأي مفاجأة:

- شقة نقيم فيها وتكون بيتنا.. لقد قرر هاني أن يؤجر البيت..والواقع أنه حقق صفقة هائلة.. سيؤجره لعائلة أمريكية تدفع له ألفي جنيه في الشهر.. وقد يقبض الإيجار بالدولارات..

وصرخ أحمد:

- هذا ليس من حقه..

وقالت زينب وهي تحاول أن تحتفظ بهدوئها حتى تقنعه:

- إنها شقته.. إنها كل ما يملكه وكل ما ورثه عن أبيه.. وقد كبر هاني وأصبح من حقه أن يستغل أملاكه..

وعاد يصيح:

- إنك تذكرت الآن أن له أبا غيري ورث عنه الشقة.. في حين أنك كنت تعتبريني كأنني أبوه الوحيد الباقي.. وأحب أن أقول لك إني منذ تزوجتك في هذه الشقة.. وأنا أعتبرها شقتي.. أنا المسئول عنها وعنك وعن ابنك.. مسئولية كاملة.. أنا رجل البيت وليس هاني..

وقالت في حدة وقد بدأت تفقد أعصابها:

- تذكر أنك يوم تزوجنا كنت ستشتري شقة جديدة.. لأنك تعلم أن هذه الشقة ليست شقتك..إنها شقة هاني..

وأنا التي ألححت عليك أن تقيم معنا.. أي أن نكون نحن الاثنان ضيفين في شقة هاني.. ومن حق هاني أن ينهي ضيافتنا ما دام قد أصبح في حاجة إلى تأجير الشقة..

وقال مقاطعا وهو محتد أكثر:

- لقد أعطيتك ثمن الشقة التي كنت أنوي شراءها.. كأني اشتريت بدلا منها شقتك أنت وابنك..

وقالت متحدية:

- لقد خصصت ما دفعته لي للإنفاق على هاني كأني أدفع له إيجار شقته التي نقيم فيها.. وقد انتهت الآن قيمة ما أخذه هاني من إيجار.. فهل أنت مستعد أن تبدأ في دفع إيجار الشقة من جديد.. أي تدفع لهاني ألفي دولار في الشهر؟

وصاح الزوج:

- إني لم أدفع لهاني إيجارا للشقة.. بل كنت أدفع له ولا أزال أدفع كل نفقات حياته بما فيها تغطية كل بلاويه.. أنا الذي أتحمل مسئوليتك ومسئولية ابنك.. ولن أدفع لكما ولا مليما كإيجار للشقة.. إنها شقتي أنا.. مادمت أنا المسئول وحدي..

وعادت زينب وضغطت على أعصابها وهدأت حدتها..وأمسكت بيده تضغط عليها وتبتسم له هذه الابتسامة التي لم تعد تغريه وتثيره..وقالت كأنها تتوسل إليه:

- حرام أن تحرم هاني من أول مرة يقدم عليها لتحقيق دخل خاص به والاستقلال بشخصيته

وإحساسه بأنه أصبح رجلا..

وقال وهو يلتقط أنفاسه ليسترد هو الآخر هدوءه:

- حتى لو حاولنا أن نستجيب لهاني فلن نستطيع تحقيق إرادته.. إن الشقة التي كانت سأشتريها منذ خمسة عشر عاما كان ثمنها ستة وعشرين ألف جنيه..والآن يبلغ ثمنها أو ثمن أي شقة تليق بنا أقل من نصف أو ربع مليون جنيه، مهما هبطنا عن المستوى الذي نعيشه.. وأنا لا أملك مثل هذا المبلغ.. كما تعرفين..

وقالت بسرعة وهي ترفع يده وتقبلها:

- إني أعرف أنك شاطر.. تستطيع دائما أن تحقق كل ما تريده..

وتركته كأنها واثقة أنها أقنعته بإخلاء بيتهما والانتقال إلى شقة أخرى يستأجرها.. وهو هائم يفكر كأنه يتصور مصيره.. إنه ناجح.. وهو معتمد في حياته على دخل ثابت يوفر له حياة في مستوى راق.. ولكنه لا يستطيع، بل لعله لم يحاول أن يمتلك مصادر للدخل تزيد عن حاجته.. إن كل ما يملكه هو حسابه في البنك الذي يغطي احتياجاته واحتياجات العائلة.. فكيف يحصل على مبالغ تكفي لشراء أو حتى إيجار شقة تحفظ له مستوى معيشته.. ثم كيف يستهين بنفسه إلى حد أن يستسلم لهذا الولد المتعب المنحل وهو يطرده من بيته!..

ومرت أيام وزوجته زينب تسأله كل يوم:

- هل وجدت شقة؟

ويجيبها كأنه يبصق في وجهها:

- لم أبحث ولن أبحث..

وقضيا هذه الأيام وهما متباعدان.. والابن هاني يتعمد ألا يقترب منه ويختبئ كلما كان في البيت مع أمه.. ولكنه في مرة وقف أمامه وقال له في إصرار كأنه يفرض حكمه عليه:

- بابا.. إني مصمم على تأجير الشقة..

ورد عليه في إصرار أعنف:

- وأنا يا ابني مصمم على عدم إخلاء الشقة والخروج منها!..

وتباعدا توا كأن كل منهما يائس من مناقشة الآخر وإقناعه!..

ومر يومان..

وكان أحمد في مقر عمله عندما اتصلت به زوجته زينب بالتليفون وقالت له بلا مقدمات:

- لقد انتهى هاني من توقيع عقد الإيجار.. وتركت أنا الشقة وأخذت معي كل حاجتك وحاجتي وأحدثك الآن من بيت أمي.. وأنا في انتظارك..

وأجابها كأنه لم يفاجأ بل انتهى تفكيره واتخذ قراره:

- وأنا سأذهب إلى بيت أمي.. أرسلي حاجياتي إلى هناك.. فإني لن أعود إليك.. لم يعد لنا بيت يجمعنا.. أنت طالق!..

وألقى سماعة التليفون دون أن ينتظر أي كلمة منها.. وهام يستعرض كل حياته معها وكيف تزوجها..

وارتفعت بين شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يقول لنفسه: إن الزوجية لا تقوم على عقد زواج يعقده المأذون.. ولكن الزوجية تقوم على عقد ايجار الشقة الذي يعقده السمسار!.. وقد أخطأ عندما اكتفى في زواجه بعقد المأذون.. ويجب أن يبحث عن سمسار لتأجير الشقة قبل أن يعود ويفكر في الزواج!

* * *

العمر لحظات

كان ممدا في استرخاء على المقعد العريض في شرفة بيته.. وكل شيء فيه مسترخ.. وتنتابه أحيانا فترات يحاول أن يقاوم فيها استرخاءه.. ولو برفع يده والتقاط الجريدة اليومية من جانبه وإعادة تصفحها.. أو حتى بمجرد التركيز على أنفاسه ليحس بها.. شهيق.. زفير.. ولكنه لا يكاد يحاول حتى يعود كل شيء فيه ويسقط مسترخيا.. وملامح وجهه مسترخية في كمد حزين يائس.. إن أمامه يوما آخر طويلا سيقضيه هكذا مسترخيا.. زهقانا.. وحيدا..

ومرت ابتسامة مرّة على شفتيه.. كأنه يشفق بها على نفسه.. إنهم يتحدثون دائما عن المرأة العجوز التي يتركها زوجها وحدها..ويشفقون عليها من وحدتها..وقد يسعون إليها للتخفيف عنها ولو بملء أذنيها بالكلام.. ولكنهم لا يشعرون بالرجل العجوز إذا أصبح وحيدا.. إنهم يحملونه وحده مسئولية وحدته..كما تعودوا أن يحملوه مسئولية كل حياته..مع أن المرأة العجوز تستطيع أن تحتفظ إلى آخر أيامها بما يملأ وحدتها.. تستطيع أن تدخل المطبخ وتشغل نفسها بأي قطعة فيه حتى إذا كانت قد أذابت كل قطعة بعينيها.. تستطيع أن تشغل نفسها بالتطريز والحياكة.. أو بحديث لا ينتهي مع الشغالة.. ثم من طبيعتها أن تحتفظ بأمومتها

لأبنائها.. حتى لو كانوا قد هاجروها وأقام كل منهم وحده وتركوها وحدها..

إن الأمومة لا تتركها أبدا وحيدة.. ولا تفصلها أبدا عن أبنائها.. ولكن الرجل العجوز هو الذي يعاني الوحدة.. لقد حاول مرة أن يدخل المطبخ ويشغل نفسه بإعداد أي نوع من الأطعمة.. ولو بأن يسلق بيضة.. ولكنه لم يحتمل سوى دقيقة.. أحس كأنه في مكمن مخيف وأن كل ما في المطبخ يكاد ينهار عليه ليقتله.. الحلل.. والصواني.. والأطباق..والأكواب..وخصوصا أنبوبة البوتاجاز.. إنه لم يتعود أبدا دخول المطبخ.. ولعل كل ما في المطبخ يعتبره غريبا اقتحم عليهم دنياهم.. ثم إنه أحس بأنه استسلم للعجز والوحدة إلى حد أن ضحى بكبريائه ورجولته ودخل المطبخ.. فهرب خارجا منه كأنه ينقذ كل ما بقي فيه..

ثم إن الرجل ليس فيه طبيعة المرأة التي تدفعها إلى التطريز والخياطة.. إنها طبيعة تدفعها إليها متعة كساء أولادها وأن يكون كل ما يغطيهم وينسدل عليهم من صنع يديها.. أو متعة تزيين بيتها بمجموعة من المفارش تكون هي التي صنعتها بعقلها وأصابعها وذوقها.. لتتباهى بأنها فنانة لها ذوق فنان.. ولكنه هو لم يمسك في حياته أبدا بإبرة وفتلة ويحيك أي شيء.. حتى لو سقط زرار من قميصه مثلا تركه لزوجته نعمت .. الله يرحمها.. لترتقه بأصابعها.. لذلك فهو لا يستطيع أن يشغل نفسه بالحياكة كما تفعل أي امرأة.. وكل شيء

يحتاجه أو يحتاج إلى رتق إما أن يهمله أو يلقيه بين يدي أم عزيزة التي خلفتها له زوجته المرحومة لتقوم على خدمته..

ربما كان يستطيع أن يعتمد في التخفيف من وحدته على ولديه.. محمود ومنصور.. وهما قد تزوجا منذ سنوات وأصبح لكل منهما بيت وزوجة وأولاد.. ورغم ذلك لم يكن يمر يوم دون أن يتصل كل منهما بأمه.. أو تتصل أمهما بهما.. كانا لا يحرمان البيت منهما ولا من أولادهما.. ولكن بعد أن ماتت الأم أخذ اتصالهما بأبيهما يتباعد.. كأنه لم تعد له قيمة ولا كيان بعد أن أصبح وحده وليست أمهما بجانبه.. ربما أصبح كل منهما ينتظر أن يقوم أبوه بالاتصال به وزيارته.. إنه مركون على المعاش وليس هناك ما يشغله عن التعبير عن عواطفه نحوهما.. عواطف الأب الحريص على ألا يشغل أولاده بالسؤال عنه.. ولكنه كان مزهوا بنفسه عنيدا ولا يرضى بأن يكون في حاجة إلى ولديه حتى لمجرد رؤيتهما.. إذا لم يسعيا إليه فلن يسعى إليهما.. لا هما ولا حتى أحفاده الذين يحملون اسم العائلة..

لذلك فقد تباعدت فترات الالتقاء بولديه لتخفيف بعض لحظات من وحدته..

وقد كانت تنتابه أحيانا الحسرة لأنه لم ينجب بنتا أو بنات.. إن البنت لا تهمل أبدا إحساسها بعائلتها.. بأمها وأبيها.. وإحساسها بأبيها في نفس قوة إحساسها بأمها.. وهو له أصدقاء عواجيز مثله وعلى المعاش ولا يشعر

أي منهم بالوحدة لأن كلا منهم له بنات.. لا يتركنه أبدا وحيدا في فراغ.. حتى لو تركت الزوجة أيا منهم فلا تتركه ابنته..

وربما كان يستطيع أن يتحرر من وحدته بالتفرغ لهواية من الهوايات.. كأن يدعو أصدقاءه كل ليلة ليلتفوا حول مائدة ويلعبون الكوتشينة.. أو يذهب إلى المقهى ويلعب الطاولة أو الشطرنج.. ولكنه طول حياته لم يكن له أي من الهوايات، ولم يلعب أي لعبة حتى لو كانت لعبة رياضية.. إنه لم يكن في حاجة إلى الرياضة، فقد احتفظ له الله بصحته ورشاقة قوامه ونضارة وجهه الذي لا يزال وجها وسيما مشدودا لم تصله أي تجاعيد حتى بعد أن تعدى عمر الستين.. وكأن الله أغناه عن الالتجاء للرياضة للاحتفاظ بمسرى دمائه في عروقه حتى يقاوم ما يمكن أن يتعرض له بعد أن أصبح عجوزا.. بل إنه يحس بمتعة السير على قدميه طويلا.. ولكنه لا يزاول هذه المتعة في الخلاء أو في النادي.. إنما تعود أن يسير في الشوارع المزدحمة حتى يسلي نفسه بالتفرج على الناس المارين حوله وعلى ما تعرضه الحوانيت.. وحتى يهرب من الإحساس بأنه يزاول رياضة مفروضة عليه للاحتفاظ بصحته ونشاطه..

وقد كان يستطيع أن يتغلب على وحدته بأن يشغل نفسه بالإشراف على الأفدنة العشرة من أرض يملكها قريبا من القاهرة.. يستطيع أن يجند نفسه للزراعة وتربية الدواجن والبهائم.. والدخول في مشروعات

واسعة تستنزف كل ساعات يومه وتحصره داخل هدف يسعى إليه.. هدف النجاح كمزارع يستغل الأرض.. ولكنه لم يكن أبدا مزارعا، ولم يخطر على باله أبدا الاهتمام بهذه الأرض منذ أن اشتراها.. وكانت زوجته نعمت هي التي تشرف عليها.. بل كانت هي صاحبة مشروع شرائها بعد أن ارتفع دخله وأصبح يستطيع أن يدفع ثمنها.. بل إنه لم يتمسك بملكية هذه الأرض لنفسه بل اشتراها باسم ولديه.. وأهملها ولم يكن يتذكرها إلا إذا عرضت عليه زوجته بعض مشاكلها فيها.. لم يكن يعتبر هذه الأرض أكثر من خزينة إدخار أقامها لولديه لا تفترق عن قيمة حساب ما يدخره في البنك.. وبعد أن تركته زوجته نعمت.. ودون أن يتعمد أو يفكر ويخطط أصبح ولداه محمود ومنصور يتوليان الإشراف على إدارة هذه الأرض.. لا لأنهما تعمدا فرض حقهما على أبيهما باعتبارهما أصحاب الأرض، ولكن لأنهما يعلمان أنه لن يهتم بتحمل مسئولية لا تخطر على باله..

لم يعد أمامه ليملأ فراغه ويهرب من الإحساس بوحدته إلا أن يقرأ، أو يجلس أمام شاشة التليفزيون، أو يملأ أذنيه بالاستماع إلى محطات الإذاعة.. ولكن ماذا يقرأ؟!.. لقد كان من عادته ألا يقرأ في الصحف والمجلات إلا عناوين الصفحات.. ثم يلقيها إلى زوجته نعمت لتقرأ صفحة الوفيات أولا ثم بعض ما يهم سيدة البيت.. وعندما بدأ يتعمد أن يطوف بكل ما ينشر في الصفحات أحس بالملل يهاجمه سريعا حتى لا يطيق أن

يتم قراءة مقال أو خبر مطول.. ولعل أقوى ما كان يشده للقراءة هي أخبار الجرائم.. إنها حكايات مسلية.. ولكنه أيضا لا يكاد يكتشف موضوع الجريمة حتى يلقي بالجريدة من يده زافرا زهقه من بقية السطور.. و قد حاول أن يعود إلى عادته القديمة بقراءة كتب الدراسات الاقتصادية التي ترتبط بعمله.. فهو رجل اقتصاد.. ولكنه كان يقرأ ليستعين بما يقرأه في عمله وهو الآن لا يعمل..فلماذا يقرأ؟!.. وعدل عن قراءة الكتب الدراسية.. وبدأ يقرأ كتب القصص البوليسية والقصص العاطفية.. ولكنه يحس وهو يقرأ بالملل والزهق أيضا.. ويحس كأنه يفرض على نفسه مقاومة هذا الزهق والملل.. كأنه يعذب نفسه بتناول دواء لمقاومة وحدته!..

وخلال هذه الأيام خطر على باله أن يضع بجانبه كأسا من الخمر.. ويرفعها إلى شفتيه بين كل صفحة يقرأها وأخرى كما شاهد في بعض أفلام التليفزيون.. إنه لم يكن أبدا سكيرا.. بل لم يخطر على باله يوما أن يذوق الخمر.. ولكن فليجرب.. إنه يعرف أن الخمر تهب الإنسان القدرة على التغلب بخياله على واقعه.. وربما وهبته خيالا يستطيع به أن يتغلب على إحساسه بواقعه.. وفعلا.. جاء بزجاجة خمر ووضعها بجانبه بعد أن صب منها في كأس.. وتمدد على مقعد مريح وفتح بين يديه كتابا، وبعد أن قرأ منه سطورا رفع الكأس وسكب منها بين شفتيه.. فإذا به يقفز مرتعشا كأنه صب في جوفه سائلا من نار.. واشتعلت النار في أحشائه..

وقضى ساعات إلى أن هدأ.. ثم رشف من الكأس رشفة أخرى.. فإذا بشفتيه أيضا تشتعلان مع اشتعال أحشائه.. ثم إنه لا يطيق طعم الخمر.. إن طعمه مقزز منفر.. ووجد نفسه يرفع الزجاجة ويصبها في بالوعة الحمام ويزيح الكأس من جانبه.. إنه لن يعود إلى الاستعانة بالخمر مرة ثانية.. حتى لو وصل إلى احتماله في أمعائه فيكفي طعمه المقزز ليهرب منه!..

وهو مع كل هذا يعترف بالواقع الذي يعيش فيه..

إنه لا يستطيع أن يعيش حياة كاملة بعد أن تركته زوجته نعمت..

أصبح في كل هذه الدنيا كأنه يعيش وحده..

وكل ما تعطيه هذه الوحدة من حياة هو ذكرياته معها.. ذكريات الأيام التي كان لا يزال فيها على قيد الحياة معها..

لقد كان لا يزال في بداية حياته لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره عندما التقى بها صدفة في دعوة عائلية لدى أحد الأصدقاء.. ووجد نفسه يجلس بجانبها ويبدأ في حديث طويل لا يشاركهما أحد فيه.. ولا يدري ماذا شده للجلوس بجانبها؟!.. إنها ليست أجمل المحيطات به وليس فيها ما يميزها عن باقي البنات الموجودات مما يشده إليها..حتى الحديث بينهما لم يكن حديثا متعمدا يختار فيه كل منهما موضوعه وكلماته.. وليس حديث غزل.. كان حديثا طبيعيا يتجاوب بينهما في بساطة ورقة ومتعة كأنه استمرار

لحديث بدأ منذ بدأت بهما الحياة.. رغم أنهما في أول لقاء.. وقد وجد نفسه في اليوم التالي يرفع سماعة التليفون ويستطرد في الحديث معها.. دون أن يحس بأنه يتجرأ عليها أو يأخذ حقا ليس له.. وتطور الحديث وأصبح يجمعهما في لقاءات.. وقد تجمع اللقاءات بين يدها في يده أو بين شفتيها في شفتيه.. ولكن كل ذلك بلا تعمد.. إنما يجدان نفسيهما فيه.. كأن الله خلقها له وخلقه لها..

ومضت شهور بدأ يحس فيها كأنه لم يكن قد ولد بعد قبل أن يلتقي بها.. أو كانت حياته فارغة يعيشها وحده لا يشاركه فيها أحد.. لم تجمعه الحياة إلا بها.. ويجب أن تستمر هذه الحياة.. وتقدم يطلبها للزواج.. إنه لا يهمه الزواج ولكنه يريد أن يستكمل مظاهر الحياة.. وقد تقدم دون أن يراعي التقاليد المتبعة.. فقط عرض عليها الزواج خلال حديث عادي.. وهي لم تفاجأ.. كأنها أيضا لم تكن تفكر في الزواج وتجعل منه هدفا لها.. يكفيها استمرار الحديث بينهما خلال لقاءاتهما.. واستمراره إلى الأبد.. ووافقت فورا على الزواج كأنها أيضا مقتنعة بأنه مجرد مظهر من مظاهر الحياة..

وواجهتهما العائلتان بكثير من المشاكل.. فهو لا يزال صغيرا لم يستكمل بعد القدرة على تحمل مسئوليات الزواج.. وهي وإن كانت في العشرين من عمرها.. أصغر منه بعام واحد.. وتستطيع أن تنتظر زوجا قادرا على توفير مطالب الحياة الزوجية.. وهما مندهشان في كل

ما يثيره أهلهما.. إن كل هذه التفاصيل لا تخطر على بالهما.. فالله خلقها له وخلقه لها.. وكل حياتهما في يد الله..

وهكذا تزوج حبيبته نعمت..

وأحس أن كل حياته بدأت بعد هذا الزواج.. بل إنهما تعودا بعد ذلك أن يحتفلا بذكرى يوم زواجهما كأنه احتفال بعيد ميلاد كل منهما..

ولم يكن شيئا عندما تزوج.. كان مجرد خريج في الجامعة يبحث عن عمل.. ولكن زوجته كانت تؤمن بعبقريته إيمانا مطلقا.. تؤمن بأنه سيصل وسينجح.. ولذلك تعمدت أن تتركه متفرغا لعبقريته.. لم تشغله يوما بأي شأن من شئون العائلة والبيت..إنها تؤمن بأن البيت والعائلة هما حياة الزوجة.. أما الرجل فحياته في الشارع.. شارع العمل.. وكان يعود من الشارع ويضع كل ما اكتسبه في يد نعمت.. ويتركها تخطط ميزانية حياتهما كما تريد.. ولم يحس أبدا بشيء ينقصه منذ بدأ يعود من الشارع بعشرة جنيهات في الشهر إلى أن أصبح يعود إلى نعمت بألف.. وألفين.. إنها كانت صاحبة موهبة في أن تعيش بعشرة جنيهات كما تعيش بألف.. إنها تؤمن بأن السعادة هي سعادة الروح.. وهي سعادة لا تباع ولا تشترى.. فلا ترتبط بكم تكسب من المال وكم تريد.. إنما هي سعادة تزرع داخل النفس وتنمو وتزدهر وتعيش العمر كله.. ما دام الإنسان قادرا على تطويع معنى السعادة مع كل ما يعيش فيه..

بل إنه لم يكن داخل البيت مسئولا حتى عن نفسه.. إنها تختار له ما يلبسه قبل أن يخرج.. ويعود فيجدها قد اختارت له ما يلبسه لينام به.. ولم يحاول يوما أن يختار ما يأكله فهو دائما يجد ما يريده على مائدة الطعام.. وكأنه اختاره بنفسه!.. وهو يخرج إلى الشارع وهو مطمئن إلى أن في جيبه ما يكفيه من نقود.. ولكنه لا يدري كم.. فنعمت هي التي تفتح محفظته كل صباح وتراجع ما فيها وتترك فيها دائما ما يكفيه!.. وحتى حياته الاجتماعية.. إنه لا يبذل أي جهد في المطالب والمظاهر الاجتماعية.. فهو مشغول بعمله حتى لا يخطر على باله أحد من أهله.. يريد أن يسأل عنه..وليس له أصدقاء إنما كل من يعرفهم ويرتبط بهم هم زملاؤه أو من يحتاج إليه في عمله.. فإذا انتقل من عمل إلى عمل.. انتقل من معارف إلى معارف.. أو من مجتمع إلى مجتمع.. دون أن يحس أنه فقد شيئا!..

ولكن زوجته نعمت هي التي كانت تتحمل كل المسئولية الاجتماعية.. كانت هي التي تتولى الاتصال بأفراد عائلته وتدعوهم أو تشده معها لتلبية دعواتهم وهي التي تعد ولائم هادئة تدعو إليها زملاءه في العمل وتعتبرهم أصدقاءه لا مجرد زملاء.. ولذلك كانت تدعو حتى الزملاء القدامى الذين ترك العمل معهم.. كانت هي التي ترسم كل الصور الاجتماعية التي يعيش فيها، حتى لو كانت مجرد أن تصحبه ليلة لمشاهدة مسرحية أو فيلم سينمائي.. وهو مستسلم لها دائما.. لأنها كانت

حريصة على ألا يشغله أي مجتمع عن تفرغه لعمله ولأفكاره.. إنها توفر له فقط فترات يرتاح فيها من هذا العمل وهذه الأفكار..

حتى بعد أن أنجبا ولديهما.. محمود ومنصور.. لم يكن يتحمل مسئوليتهما.. كانت نعمت هي المسئولة عنهما.. وهو يقضي معهما لحظات تجمع بين منتهى الحب بين الأب والأبناء.. وكل ما في حياتهما غير هذه اللحظات تتولاه أمهما.. سوى أخبار كل يوم ترويها له نعمت وهما في الفراش.. وطول حياته وحبه لهما يقوم على الاطمئنان عليهما.. كأن حبه لهما هو حبه لزوجته نعمت.. وقد كان ولداه دائما كاملين.. ناجحين.. يتباهى بهما أي أب..

كم استمرت حياته التي كان يستمد جوهرها بحياة زوجته نعمت.. أربعين عاما وبضعة شهور..

وهو يذكر أنه في يوم من هذه الشهور الأخيرة خطر على باله بحكم السن صورة النهاية.. فالتفت إلى نعمت قائلا كأنه يستغيث بها:

- عديني ألا تتركيني قبل أن أتركك.. أنا الذي أذهب أولا!..

وقالت في رقة غاضبة كأنها تشفق عليه من أوهامه:

- لا تفكر في النهاية..ولا تنتظر المصير.. فكل شيء بيد الله وحده.. وعش فرحا بالأيام التي يهبها لك الله..وفرحا أيضا عندما يقرر الله دعوتك إليه!..

وقد سبقته..

قدمها الله عليه في دعوته..

وقد كانت حريصة كعادتها في ألا تحمله أي مسئولية وهي تتركه.. فلم تمرض.. ولم تشك.. حتى لا تكلفه البحث عن طبيب أو تحمله شكواها..ورقدت على الفراش.. وأغمضت عينيها.. ونامت النوم الأبدي!..

وولداها يتخذان كل الإجراءات لتشييع أمهما وهما يبكيان.. وهو ملقى على مقعد وهو مجمد.. صامتا.. لا يبكي.. وعيناه منطلقتان نحو السماء كأنه في انتظار أن تأتي زوجته وتدعوه إليها.. فهي لم تتركه وحده أبدا.. بل إنها تعلم أنه لا يستطيع أن يعيش وحده..

وقد مضى عليه ثلاث سنوات وهو يعاني وحدته.. ولا يحس بأي أمل في الخلاص منها.. بل إنه أصبح يكره أنه دائما في صحة كاملة.. لا يشوبه ضعف.. ولا يشكو من شيء.. بل أصبح ينظر في المرآة ويرى قوامه الممشوق المتسق ووجه النضر المشدود الذي لم تتجرأ عليه التجاعيد.. ويبتسم ساخرا.. ما حاجته إلى الرشاقة والنضارة؟!.. ربما بقيا له لأنهما من مخلفات زوجته نعمت. وهي التي تحتفظ له بهما!.. ثم يرخي عينيه ويزفر أنفاسه كأنه يرسل عتابا إلى الله لأنه لا يأخذ هذه الرشاقة والنضارة ويعيدهما إلى نعمت.. ويريحه من وحدته!..

وقد حاول ولداه أن يدعواه للإقامة مع أي منهما إشفاقا عليه من وحدته.. ولكنه رفض.. إنه يعلم أن البيت هو دائما ملك الزوجة.. بل دنيا الزوجة.. وزوجة

كل ولد من ولديه ليست ابنته ولا حق له عليها.. إنه سيقيم معها كأنه يقيم في ملجأ أقامته له.. إنه لا يقيم أبدا إلا في بيت تملكه زوجته.. كما كان يقيم في دنيا نعمت.. وهو وحيد دائما في أي بيت لا تقيم فيه نعمت..

* * *

ونظر إبراهيم عز الدين إلى ساعته وهو مسترخ على مقعده في شرفة البيت.. إنها الساعة الثانية والنصف بعد الظهر.. الساعة المحددة دائما لتناوله طعام الغداء منذ أيام نعمت.. إنه لم يعدل أبدا عن النظام الذي كانت قد وضعته له نعمت..

وقام بقوامه الممشوق يجر استرخاءه نحو مائدة الطعام.. وأقبلت أم عزيزة تقدم له الطبق الوحيد الذي استطاعت أن ترث إعداده من المرحومة نعمت..

وانتهى من تناول طعامه في دقائق ودخل غرفة النوم.. لقد كان متعودا أن ينام دائما ساعات بعد تناول الغداء.. ولكنه الآن لا يستطيع أن يجذب النوم إلى عينيه.. لم يعد في نهاره مجهود يبذله حتى يدفعه إلى النوم.. إنما هو يستلقي على الفراش مغمض العينين مستعرضا في خياله مزيدا من ذكرياته.. وقد خلع القميص والبنطلون اللذين تعود أن يلبسهما وهو جالس في الشرفة.. وهَمّ أن يرتدي الجلباب.. ولكن أين هذا الجلباب؟!.. إنه ليس مفرودا على السرير كما كانت تعده له المرحمة نعمت.. وليس معلقا على المشجب.. وصرخ

ينادي أم عزيزة: أين الجلباب؟.. وبدأت تبحث له عنه في كل نواحي الغرفة دون أن تجده..

وفجأة دق جرس الباب..

وذهبت أم عزيزة لتفتح.. وعلت شفتيه ابتسامة وهو يسمع صوت مشيرة تحييها.. ثم فوجئ بها واقفة أمامه داخل الغرفة.. واتسعت ابتسامته كأنه يحتضن بها شباب مشيرة.. ولكنه تنبه إلى أنه لم يلبس الجلباب بعد ولا يزال بثيابه الداخلية.. فاحتضن نفسه بذراعيه كأنه يغطي نفسه.. ومشيرة تضحك في انطلاق وحلاوة قائلة:

- ماذا بك؟!

وأجاب إبراهيم وابتسامته ترتعش:

- إني لا أجد الجلباب.. لا أدري أين أخفته أم عزيزة!..

وقالت مشيرة وهي تقفز في أنحاء الغرفة:

- بسيطة..

ثم أزاحت الستارة العريضة الطويلة المسدلة فوق النافذة.. ووجدت الجلباب ملقى على الأرض من ورائها.. وحملته واقتربت من أم عزيزة التي كانت في الغرفة باحثة عن الجلباب.. وقالت لها وهي تفرد أمامها الجلباب على الفراش.. ولهجتها لهجة ست البيت:

- الجلباب يطوى هكذا.. ثم يوضع تحت وسادة السرير هكذا.. فاهمة..

وقالت أم عزيزة وهي تخرج من الغرفة وتمط شفتيها في سخط:

- حاضر..

ثم رفعت مشيرة الجلباب وناولته لإبراهيم قائلة في بساطة من خلال ابتسامة واسعة تضج بالحياة:

- تلبس أم تحب أن ألبسك..

وشد إبراهيم الجلباب بسرعة وأسقطه على جسده كأنه يخفيه عن مشيرة.. وقال بسرعة:

- لنجلس في الشرفة..

وقاطعته مشيرة قائلة كأنها تدبر حياته:

- لا .. إني أعلم أنك تنام بعد تناول الغداء.. فنم.. ولنتحدث كلمتين قبل أن يأخذك النوم..

واحتار إبراهيم ولكنه ضم حاجبيه بسرعة كأنه قرر أن يخالف التقاليد وينام أمام مشيرة.. ورقد على السرير.. ولفت مشيرة وجلست على الناحية الأخرى من السرير.. إنها نفس الناحية التي كانت مخصصة لتنام عليها زوجته نعمت.. رحمها الله..

وقالت مشيرة وهي تطل عليه بعينين حانيتين كأنها تقبله بعينيها:

- كيف حالك؟

وقال وهو يزفر نهدة حزينة:

- كما أنا.. أعاني الوحدة..

وقالت من خلال ابتسامة حانية شفوقة:

- لن تكون وحيدا بعد اليوم..

وقال في دهشة:

- كيف؟!

قالت في بساطة:

- سأكون معك..

وقال وعلى شفتيه ابتسامة حزينة كأنه يسخر بها من نصيبه:

- ستكونين معي لحظات.. ثم تتركيني لأعود إلى وحدتي دون أن تتركي لي شيئا يخفف من وحدتي.. إني أعتبر زيارتك لي كأنها زيارة مواساة..

وقالت ببساطتها:

- لا.. سأقيم معك.. لن أتركك وحدك.. لا نهارك ولا ليلك!..

وقال في دهشة صارخة:

- كيف.. ماذا تقصدين؟!

وقالت كأنها تصدر أمرا منتظرا:

- سنتزوج..

وهب من رقدته وهو يصيح:

- هل أنت مجنونة!!

وقالت ضاحكة دون أن تفاجأ بصيحته:

- إن المجانين هم الذين يصنعون الحياة.. والعقلاء هم الذين يستسلمون لها كما يجدوها.. المجانين هم أسياد الحياة الذين يفرضون إرادتهم عليها ليعيشوا متعتها.. والعقلاء هم عبيد الحياة المقيدون بها مهما عذبتهم.. وأنت وأنا لم نعد نطيق الحياة كعقلاء.. وأصبحنا في حاجة إلى الجنون..

وقال والمفاجأة تغلي في عروقه:

- إن شبابك يدفعك لأن تقيمي في حياتك مبان جديدة.. وأن العجوز لم يعد لي في حياتي ما أبنيه.. إنما فقط أراعي أن يتم الهدم برفق!..

وقالت وهي تبتسم له في هدوء:

- حياتنا ليست عمرك وعمري.. إنها لحظات يعيشها الشباب والشيوخ.. وقد نبني قصرا في لحظة.. ونعيش فيه لحظة.. ونهنأ ونتمتع بهذه اللحظة.. وسأتركك الآن لتفكر في هذه اللحظة التي تجمعنا وسأذهب إلى السوق لأطوف على الدكاكين وأعد ما تحتاجه اللحظة التي قررت أن أعيشها.. وسأعود إليك بعد ساعتين.. وتكون قد انتهيت من بناء اللحظة التي تحتاج إليها بخيالك.. ونبدأ بناء الحياة التي نعيشها..

وانحنت وألقت قبلة على جبينه ثم قفزت منصرة..

ولم يحس بأنها قبلته.. وهو هائم مع أفكار يتخيل حياته وقد أصبحت لحظات!..

وظل إبراهيم راقدا على فراشه يعيش ذكريات كل حكايته مع مشيرة.. وعيناه مبحلقتان في الفضاء تنطلقان بالدهشة وتمر بهما نظرات ساخرة، ثم نظرات جزعة، ثم نظرة ثائرة.. إنه حائر.. ضائع.. مبدد الفكر والإحساس.. لا يستطيع أن يستقر في تلقي هذه المفاجأة التي ألقتها عليه مشيرة.. إنها تطالبه بأن يتزوجها!..

وقد عرف مشيرة وهي لا تزال في الخامسة أو السادسة من عمرها.. ابنة الجيران.. وكانت تتردد على

البيت لتلعب مع ولديه.. محمود ومنصور.. ولكنها لا تكاد تراه يدخل حتى تصيح مرددة: عمي .. عمي.. وتنحدف عليه.. فتنطلق منه فرحة بها ويحملها بين ذراعيه ثم يجلس ويجلسها فوق ساقيه أو بجانبه.. ويقضي دقائق وهو يداعبها ويسمع منها كلاما لا أول له ولا آخر.. كلام طفلة.. وهو يحب هذه الطفلة.. لا لأنها جميلة فهي ليست في منتهى الجمال.. ولكنها خفيفة الدم.. ذكية وذكاؤها يتعدى عمرها.. وجريئة إلى حد أن تتعلق به وتعلن حبها له أمام زوجته وجميع أفراد العائلة، دون أن يبدو عليها هذا الحياء وهذا الانكماش الذي يميز البنات عن الأولاد.. وربما كان يحبها هذا الحب لأنه كان طول عمره يتمنى أن يرزقه الله بابنة.. ولكنه كان محروما من البنات وظل طول عمره محروما منهن.. فهو يحبها كابنته..

ومشير ة تكبر مع عمرها.. وانقطع ما يدفعها إلى اللعب مع أولاده.. ولكنها لا تزال تتردد على البيت وتتعلق به وتقضي هذه الدقائق معه.. حتى أصبح معروفا أنها تأتي إليه وحده.. دون أن يثير تعلقها به أي شك أو ريبة فيما بينهما.. إن زوجته نعمت.. تفرح بمشيرة وتتركها له..فهي أيضا تعتبرها كأنها ابنتها.. وقد اتسعت مواضيع الأحاديث بينها وبينه.. إنها تروي له كل ما جرى لها في يومها بين البيت والمدرسة.. وكثير مما ترويه قد يكون من أسرار لا تستطيع أن تصارح بها أمها أو أباها.. ولكنها تصارحه بها هو.. وقد روت له مرة

حكاية الطالب الذي يلاحقها بعد خروجها من المدرسة ويلح عليها في لقاء.. وقالت ضاحكة:

- إنه معذور.. فقد كنت أنا التي بدأت بالبحلقة فيه.. فهو وسيم مغرٍ وله شخصية جذابة.. ولعل بحلقتي هي التي دفعته إلى ملاحقتي.. ولكني قاومته.. ولا أزال أقاومه..

وهو يذكر أنه قال لها يوما في هدوئه الذي عودها عليه:

- إن أي علاقة بين اثنين.. بنت وولد.. يجب أن تبدأ بالمقاومة.. وتنتهي إلى ما تنتهي إليه هذه المقاومة.. إما أن تخفت وتزول فيجتمعان.. أو تبقى وتشتد إلى أن يتباعدا..

وردت عليه ضاحكة:

- يظهر إني وصلت بمقاومتي إلى أن وضعته في يأس.. فقد بدأ يتباعد عن ملاحقتي..

وقد تعدت مشيرة السابعة عشرة من عمرها وهي تتردد عليه.. ولا ينكر أنه كانت تمر به لحظات يجد خلالها عينيه متعلقتين بقوامها.. أو بثدييها.. أو بشفتيها.. ولكنه لم يتهم نفسه أبدا بأنه يشتهيها.. إنه فقط معجب ومزهو بها كفتاة يمكن أن تجذب أي رجل.. وقد بدأت في هذا العمر تروي له أخبار الخُطاب الذين يطلبونها للزواج.. وقد جاءته يوما وهي تزفر رعشة الغضب كأنها تواجه مصيبة، وقالت ودموعها تبرق في عينيها:

- بابا مصمم على أن أتزوج شاب اسمه فتحي.. وأنا لا أطيقه.. سأنتحر قبل أن أتزوجه..

وقال وهو يخفف عنها بابتسامته:

- لن تضطري للانتحار.. فاختيار الزوج هو حقك وحدك.. حتى لو راعيت فيه تحقيق زهو بابا وماما به وتفاخرهم بهذا الزواج.. فأنت وحدك صاحبة الحق في الاختيار.. فصممي على رفض هذا الشاب الذي لا تطيقينه.. وستعانين ضجة وأزمة حادة مع بابا وماما، ولكن الحياة لا تلبث أن تهدأ بكم وتعودوا كلكم في انتظار زوج آخر.

وقالت وهي تنهج بدموعها:

- يا ليتك بابا حتى تريحني.. والمصيبة أن ماما تصر على أن أتزوج اليوم قبل الغد..حتى لم يعد لها هَمَ إلا البحث عن زوج لي..تزور الناس بحثا عن زوج، بل يخيل إليّ أنها تسير في الشارع وهي تبحلق في وجوه الرجال لعلها تجد بينهم زوجا لي.. وأنا لا أريد أن أتزوج اليوم ولا أبني تفكيري عليه في الغد.. إني أومن بأن الزواج هو ملك الصدفة التي يهبها القدر لتجمع بين اثنين في زواج سعيد..

وقال من خلال ابتسامته:

- إن الصدفة فعلا هي القدر.. ولكن الله منح الإنسان العقل ليتعامل به مع القدر.. إما أن يستسلم له أو يهرب منه.. أي أن من المفروض أن تكوني أنت المسئولة عن

نفسك حتى في مواجهة الصدفة التي يضعها أمامك القدر..

ولم تمض أسابيع حتى جاءت إليه مشيرة وهي في حالة أخرى.. إنها لا تهلل بالفرح، ولكنها مبتسمة ابتسامة متزنة هادئة..وقالت له:

- لقد قبلت أن أتزوج..

وقال بفرحة:

- تتزوجين ممن؟

وقالت في لهجة جادة:

- اسمه عبد الوهاب حمدي.. هل تعرفه؟

واكتسحت الدهشة فرحته..و قال:

- أعرفه.. ولكنه أكبر منك كثيرا.. لقد تجاوز الأربعين من عمره وأنت لم تتجاوزي التاسعة عشرة!..

وقالت وهي هادئة:

- إني لا أندمج مع الشبان.. أحس وأنا بينهم كأني ألعب معهم لعبة نط الحبل.. ولا يمكن أن أتزوج واحدا منهم وأعيش طول عمري وأنا أتنطط على حبل الحياة.. وأنا أستريح وأندمج مع كبار السن..
ولا أعتبر أحدا منهم عجوزا.. ولا أحس به كأنه عجوز.. بل أعتبره كاملا.. وأحس به شخصية متكاملة مع مطالب الحياة..

ولم يستطع أن يجد ردا عليها.. ولكن لا شك أن نظريتها في الزواج من العواجيز لا تنطبق عليه.. فهو قد تعدى الخمسين والزوج الذي اختارته لم يتعد سوى ا

لأربعين.. والفارق بين العواجيز يحسب بالشهور وبالأيام!.. لأن العجوز يفقد في كل يوم شيئا آخر من حيويته.. في حين أن الشبان لا يحسب الفارق بينهم إلا بالسنوات.. لأنه فارق يظل محتفظا لهم بمستوى واحد من الحيوية.. حيوية عمر العشرين تتلاقى مع حيوية عمر الثلاثين.. ولا يبدأ تأثر الحيوية واتجاهها إلى الذوبان إلا بعد الأربعين.. ثم تصبح لونا آخر من الحيوية بعد الخمسين.. لون آخر يتجمع في عقل الإنسان ويذوب مع باقي أطرافه!..

وقد تزوجت مشيرة فعلا من الرجل الناجح الثري عبد الوهاب حمدي.. وحضر إبراهيم وزوجته نعمت وولداه الحفل الرائع الفخم الضخم الذي أقيم لزفافها.. وكانت هي في ثوب العمر تقف هادئة متزنة لا تنطلق بها فرحة الشابات في ليلة الزفاف.. ربما كانت تتعمد أن تتقمص شخصية أكبر من عمرها لتقترب من شخصية الزوج الذي اختارته..

وسافرت بعد الزفاف إلى لندن مع زوجها حيث كان يركز عمله هناك، كما كانت عادة كل كبار رجال الأعمال.. يهربون للعمل في الخارج..

ومضت أكثر من عشر سنوات.. ولم تعد مشيرة تشغل باله أو ينتظر منها لقاء.. ولكنه تلقى منها خطابا بعد عامين من غيبتها.. إنها تكتب له بنفس الصراحة التي تعودت أن تحادثه بها.. وهي تشكو.. ولكنها شكوى سطحية خفيفة.. ولم يرد على خطابها طبعا.. وبعد

عامين آخرين وصله منها خطاب ثان.. إنها تشكو أكثر.. وهو يعتبرها شكوى عادية من شابة متزوجة بعجوز.. ولا يرد عليها..وتعددت هذه الخطابات المتباعدة التي لا يرد عليها.. ومرة أو مرتين جاءت إلى مصر مع زوجها.. ولم تستطع أن تختلي به إلا دقائق رددت خلاله شكواها.. وسألته كأنها تصرخ:

- ماذا أفعل؟

وأجابها في هدوء:

- أنت التي اخترت زوجك.. وأنت المسئولة وحدك عن كل حياتك معه..

وكان يقدر أنها مهما تحملت من زوجها فإنه يخفف عنها بالحياة المرفهة الغنية التي يوفرها لها في لندن.. إنها تتقاضى ثمن كل ما تعانيه!..

وبعد مرور السنوات العشر تركت لندن وجاءت إلى مصر وحدها.. وهرعت إليه في اليوم التالي لوصولها وفاجأته قائلة:

- لقد اتفقنا على الطلاق..

وقضت ساعات تروي له ما كانت تعانيه.. لم يعد أي ثمن يدفعه لها زوجها يكفي لتتحمل هذه المعاناة.. وقال لها كأنها أقنعته:

- إن الطلاق من حقك وحقه.. ولا يعتبر مصيبة مادمتما لم تنجبا أبناء.. فإن الزواج يبدأ بحياة بين اثنين.. زوج وزوجة.. وهما أحرار في اختيار الاستمرار بهذه الحياة أووقفها والانفصال كل منهما إلى حاله..

ولكن إذا انجبا أبناء لا يعود الزواج حياة مقصورة عليهما بل تصبح حياة تجمعهما مع الأبناء.. أي يصبح كل منهما وكأنه متزوج بأبنائه.. ولذلك لا يعود من حقه أو حقها أن ينهيا حياة الزواج.. إلا إذا تنازل لهما الأبناء عن حقهم.. لذلك.. ولأنك ليس لك أبناء منه فأنت حرة.. كاملة الحرية..ولا يستطيع أحد أن يعاتبك على حريتك..

وقد عادت تتردد عليه كما تعودت منذ كانت صبية.. ولكن في زيارات متباعدة فقد أصبحت تعيش مسئوليات جديدة تشغلها عنه.. وكانت تروي له حكايتها بما فيها حكايات من يتقدمون إليها طالبين الزواج حتى من قبل أن تنتهي إجراءات طلاقها..

إلى أن ذهبت زوجته نعمت..رحمها الله..

لقد حزنت مشيرة على نعمت حزنا عنيفا صادقا وشاركت بكل إحساسها في العزاء..ثم عادت تتردد عليه بعد أن أصبح يقيم وحده.. وكانت تغيب عنه أحيانا أسبوعا أو أسبوعين.. كأنها تريد أن تنفرد بالتفكير وتخطيط حياتها وهي بعيدا عنه.. وهو يلقاها كلما جاءته بفرحة تخفف من وحدته التي يعانيها وتعذبه.. ولكنها تتركه دون أن تترك وراءها أثرا لشخصيتها يحس به.. بل يعود فورا إلى معاناته وإحساسه بالوحدة.. كأنه ينساها ولا يذكرها إلا بعينيه وهي جالسة أمامه..

وكانت قد غابت أكثر من أسبوعين أو ثلاثة.. لعلها كانت محتاجة إلى مدة أطول لتنفرد بالتركيز على

القرار الذي تتخذه.. إلى أن جاءت إليه وفاجأته بطلب أن يتزوجها..

وعادت مشيرة إليه بعد ساعتين تماما كما وعدته.. وكان قد خرج من غرفة النوم وارتدى القميص والبنطلون وجلس ينتظرها في الصالة.. إنه لا يريد أن يتركها تدخل عليه غرفة النوم وتجلس على الفراش في نفس الناحية التي كانت تنام عليها المرحومة نعمت.. وقد دخلت مشيرة وهي تحمل مجموعة من الزهور والورود.. وانشغلت فورا بالبحث عن آنية تجمع فيها ما تحمله.. وقالت ويداها مشغولتان بإعداد آنية الورد وابتسامتها ترقص على شفتيها:

لقد لاحظت أن البيت ليس مزينا بأي وردة.. وأنا لا أطيق أن يكون بيتي خاليا من الورود والزهور..

وقال كأنه يلومها:

- لم تكن نعمت تزين البيت بورد ولا زهر..

وقالت دون أن تنظر إليه كأنها تتحدث في موضوع عادي:

- إنها هي نفسها كانت وردة حمراء!..

وابتسم كأنه يشكرها على تحية المرحومة.. وفي دخيلة نفسه ابتسامة ساخرة..إنها تغريه بتزيين البيت بعد أن أصبح بيتها!..

وانتهت مشيرة من إعداد آنية الورد ووضعتها في المكان الذي اختارته لها.. ثم جاءت إليه وجلست بجانبه

ملتصقة به كما عودته أيام صباها.. وقالت وشفتاها تطل على شفتيه:

- هل فكرت وقررت؟

وقال وهو يبعد وجهه عن وجهها وينزاح عن الالتصاق بها:

- فكرت وقررت الرفض الكامل..

وقالت في لوم:

- لماذا ترفضني زوجة؟

وقال كأنه يتأوه:

- لأني لا أستطيع أن أجاريك في جنونك.. إنه جنون لا يأبه بالفراغ الكبير الذي يفصل بين أي زوجين. فراغ العمر.. إني الآن في الخامسة والستين من عمري وأنت في الثانية والثلاثين.. كأني سأحرمك من سنواتك الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين.. وسنوات الأربعين.. وسنوات الخمسين.. وأخطفك لتعيشي معي بقية سنوات الستين.. وهو حرمان لا يمكن أن يعوضه التقارب والتفاهم العاطفي بين اثنين.. بين رجل عجوز وامرأة شابة..

وقالت محتدة كأنها تنهره:

- لقد سبق أن قلت لك إن العمر لا يحتسب بالسنين، ولكنه يحتسب بالإحساس.. وقد قضيت أياما طويلة أراجع إحساسي وأناقشه وأغور فيه.. إلى أن تأكدت أنه إحساس مكين ثابت وليس مجرد صدى لمغامرة طارئة..

إنه الإحساس بأني أريد أن أتزوجك وأريدك أن تتزوجني..

وقال وهو يلفها بنظرة حانية:

- لقد اختبرت أنا الآخر إحساسي.. ووجدت أنه لا يمكن أن يستسلم للزواج..ولم أكن أقيس إحساسي بذكريات حبي وحياتي لزوجتي المرحومة نعمت.. لم يكن مجرد إخلاصي وتعلقي بهذا الحب هو الذي يحول بيني وبين الزواج بك أو بأي امرأة أخرى.. ولكنه اعترافي بعجزي عن أن أوفر لك حياة شبابك.. لقد كنت أصحب زوجتي نعمت وأرقص معها وأنا في الثلاثين.. ولم أعد اليوم قادرا على الرقص، فمن يراقصك أنت..أم من المفروض أن أستأجر شابا يراقصك حتى لا أحرمك من متعة الرقص.. وبصراحة أكثر.. إني لا أستطيع اليوم أن أحقق متعة زوجة ونحن على الفراش.. لقد أصبحت عنينا عاجزا عن توفير هذه المتعة لأي امرأة.. فلا يمكن أن أوفر لك هذه المتعة.. وبالتالي تعيشين معي وأنت يائسة من أن تكوني أما.. سأحرمك من أغلى وأقوى طبيعة لدى أي امرأة.. طبيعتها في أن تكون أما..

وقالت في لهجة هادئة حنونة وهي تعود وتلتصق به:

- إن الزواج ليس مجرد لقاء جسد رجل مع امرأة على فراش.. إنه لقاء الفكر والإحساس في مواجهة الحياة.. إنه حياة واحدة بين اثنين بكل ما في الحياة من سعادة وشقاء.. وأمل ويأس.. والزواج الناجح السعيد يجمع في بدايته بين جسدين ولكنه يصل إلى الاستغناء عن

لقاء الجسد، ويعيش مكتفيا بلقاء الروح والفكر والإحساس.. إن أبي لم يلمس بجسده جسد أمي منذ أكثر من عشرين عاما.. ورغم ذلك فهما زوجان سعيدان.. وفي منتهى السعادة.. أما عن طبيعتي كامرأة خلقت لتكون أما.. فإنها طبيعة لا تحكمني ولا تسيطر عليّ.. وأنت تعلم أني عشت مع زوجي عبد الوهاب عشر سنوات ولم أنجب منه.. وقد تردد كل منا على أطباء وقالوا كلاما كثيرا.. وأوصوا بمختلف أنواع العلاج.. ولكن حياتي كانت ممتلئة إلى حد يشغلني عن انتظار الإنجاب.. وانقطعت عن التردد على أطباء أو الاهتمام بعلاج.. اعتبرها طبيعة شاذة ولكنها طبيعتي.. ثم إنك أضحكتني عندما تحدثت عن حرماني من متعة الرقص.. إني لا أرقص ولا أحب الرقص.. إني أحب أن أعيش بين العواجيز.. وكان أول عجوز أحببته هو أنت.. مادمت مصرا على أن تحمل لقب «عجوز».. ولعلك تذكر أنك حذرتني من أن أتزوج عبد الوهاب لأنه عجوز بالنسبة لي.. ولكني تزوجته.. تغلب عليّ حب العواجيز!..

وقال في لهجة جادة:

- سأحدثك بصراحة أكثر.. إن العجوز عندما يتزوج شابة يعوضها عن حرمانها بثرائه.. بالحياة المرفهة الواسعة التي يوفرها لها.. وقد اتهموك فعلا يوم تزوجت عبد الوهاب بأنك وقعت في إغراء ثرائه ونجاحه.. وأحب أن أقول لك إني لست غنيا.. كل ما كنت أملكه

انتقل إلى ملكية ولديّ.. محمود ومنصور.. وليس لي إلا مصروف البيت ومصروفي..حتى بعد أن أذهب من الدنيا..وسأذهب قبلك طبعا.. لن تجد زوجتي إرثا يوفر لها حياة من بعدي..

قالت مبتسمة:

- إني في غنى عن زوج ثري.. وأنت تعلم ذلك..

وقال وهو يزفر أنفاسه كأنه لم يعد يجد ما يقوله:

- المهم أني لست مقتنعا بأن نتزوج.. ولا يمكن أن أستسلم لجنونك..

وقالت وهي تمد يدها وتربت على رأسه وتمسح بها على جبينه:

- اسمع يا إبراهيم.. إنك مستسلم للوحدة التي تصب عليك العذاب والضياع والزهق والملل.. إنك مستسلم لكل ما تعانيه.. وأنا أيضا وحيدة رغم أني أعيش مع أمي.. وحيدة لا تخصها حياة تنفرد بها.. ولا بيت تعتبره بيتها.. ولكني لا أستسلم لهذه الوحدة وأفكر دائما في الهروب منها.. وفكرت كثيرا إلى أن قررت أن أتزوجك.. اخترتك من بين كل من خطروا على بالي.. وأنا مصممة على أن أخلصك وأخلص نفسي من الوحدة.. وافق يا إبراهيم على أن نتزوج!..

إنها تقول: إبراهيم.. ولا تقول: عمي..كما تعودت وعودته!.. وقال في ابتسامة حزينة:

- إنك ابنتي يا مشيرة..

- وقالت ضاحكة وهي تلتصق به أكثر:

- كيف تترك ابنتك وحيدة بعيدة عنك.. وليس أمامنا طريقا يجمعنا في حياة نعيشها معا إلا أن نتزوج؟!.. سأكون ابنتك وزوجتك وأمك وصديقتك..

واقتربت بشفتيها من شفتيه وأخذتهما في قبلة.. وحاول أن يقاوم..ولكنه استسلم لشفتيها بسرعة..وطالت القبلة وهو يحس بمتعة كان قد نساها.. وإن كانت متعة لا تتجاوز شفتيه.. ثم وجد يده تتحرك وتأخذ في الزحف على ظهرها الذي يحتضنه.. ثم تمتد زاحفة على ساقيها.. ثم ترتفع فجأة باحثة عن ثدييها.. إنها متعة رائعة وإن كانت لا تسري إلا كلمسات.. إن مجرد اللمس متعة..متعة رائعة!..

وجذبت شفتيها من شفتيه كأنها قررت أن هذا يكفي..وقفزت واقفة وتركته وهي تودعه بابتسامة تنضح بسعادتها..

وقالت..

- سأمر عليك غدا..لنتحدث في التفاصيل..

ولم يقم وراءها ليودعها.. لا يزال جالسا مبهورا بمتعة قبلاتها التي لا تزال تنبض على شفتيه.. القبلات التي لم تحرك فيه أكثر من متعة اللمسات!..

* * *

وبدأت الصور تتغير في خياله..لماذا لا يتزوج مشيرة؟..

وما هو الزواج؟

إن الزواج هو معايشة بين رجل وامرأة.. وهي معايشة لا تقوم على شروط محددة.. ولا على تبادل مسئوليات معينة..إنما تقوم على الرغبة الصادقة لهذا الرجل وهذه المرأة في معايشة الآخر.. حتى وكل منهما يعلم ما ينقصه في الآخر.. وتمر على خياله صورة فارق العمر بينهما.. إنه في الخامسة والستين وهي في الثلاثين.. إنه عجوز في قمة الكهولة.. وهي شابة في قمة الشباب.. ولكن المعايشة كانت تجمعهما منذ كان هو في قمة شبابه وكانت هي لا تزال طفلة وصبية.. أي أن فارق العمر لم يبعدهما أبدا.. كانت مشيرة تصر على معايشته في لقاءات عابرة وكان يفرح وينتشي بهذه اللقاءات.. وكل ما سيحدث أن هذه اللقاءات ستتطور إلى حياة كاملة.. وهو يعلم أن كثيرا من العواجيز يعايشون زوجات شابات.. خصوصا عواجيز البترول من المشايخ العرب.. قد يكون الشيخ في السبعين ويتزوج فتاة في السابعة عشرة.. كأنه يشتري عروسة يلعب بها.. مادام يدفع ثمن شرائها.. ولكنه لن يعايش مشيرة كلعبة يلعب بها.. ولن يدفع ثمنا.. إنه سيعايشها معايشة لقاء الروح ولقاء الفكر ولقاء فلسفة الحياة التي جمعتهما دائما والتي بدأت وهي تتمناه أبا لها.. وأصبحت اليوم تتمناه زوجا..

وتقفز إلى خياله صورة زوجته المرحومة نعمت.. إنه يخونها ويعتدي عليها بمجرد التفكير في الزواج من أخرى.. حتى بعد أن ماتت.. فقد كان هناك شبه وعد

بينهما على أن من يذهب منهما يبقى الآخر مخلصا له إلى أن يذهب هو الآخر.. ويجمعهما لقاء الجنة.. ولكن.. إن نعمت كانت تحبه منتهى الحب ولا شك أن طيفها يشفق عليه من وحدته.. وتتمنى له أن يتحرر من هذه الوحدة ويخفف عن نفسه ما يعانيه.. وهي مطمئنة.. فقد مضت أعوام طويلة قبل أن تموت.. أكثر من عشرين عاما.. وهما لا يلتقيان بجسديهما.. ورغم ذلك استمرت بهما المعايشة دون أن يحس أحدهما بنقص في حياته..معايشة حلوة زاهية بلا فراش.. وهي لا شك مطمئنة إلى أنه لن يجمعه فراش مع زوجة أخرى.. ولن ينجب أبناء من أخرى كما أنجب منها.. إنها فقط تعطيه حقه في معايشة بريئة لا تستكمل كل مطالب الحب ولكنها تخفف عنه وحدته..حتى لا ينحصر البيت عليه وحده.. ويجلس على مائدة الطعام وحده.. ولا يجد من يتحدث إليه حديثه مع نفسه..

ولكن مشيرة.. من أدراه أنها يمكن أن تتحمل هذه الحياة الناقصة التي تقبر طبيعتها كامرأة شابة في قبر زوج عجوز؟!.. الطبيعة التي خلقها بها الله؟!.. وحتى لو كانت قد تعودت ألا تنجب.. كما قالت له.. فإن الانجاب يظل أملا لدى كل امرأة حتى لو تعلقت بالمعجزات.. وهو أمل لا يستمر إلا مع رجل يحاول أن يكون أبا.. وهو لم يعد يستطيع مجرد المحاولة.. ترى ماذا يمكن أن تفعل مشيرة لتحتفظ بمجرد الأمل حتى لو لم تنجب؟!.. ربما دفعها هذا التطلع إلى الأمل إلى الاستعانة

برجل آخر.. رجل تترك جسدها لجسده.. أي تخونه.. تمزق شرفه.. ولكن ما هو الشرف؟.. هو الاستجابة لمطالب الحياة التي قدرها لك الله.. أن تأكل..وتشرب.. وتملأ جسدك باحتياجاته الطبيعية..

المهم ألا تخرج عن المستوى الذي وضعك فيه الله.. فإذا كان الله قد قرر لك أن تأكل العيش الجاف.. فليس من حقك أن تأكل الجاتوه وإلا أصبحت غير شريف.. وإذا كان الله قد منح امرأة زوجا يوفر لها كل احتياجات جسدها، فليس من حقها أن تلجأ إلى رجل آخر وإلا أصبحت غير شريفة.. وهو لن يستطيع أن يوفر احتياجات جسد مشيرة.. فإذا لجأت إلى رجل آخر.. فليس معنى ذلك أنها ليست شريفة.. ولا تعتدي على شرفه.. ليست خائنة ولا تخونه.. إنها تغطي ما ينقصها لتعيش الطبيعة التي خلقها بها الله.. فهي شريفة!..

وهز رأسه بعنف كأنه يطرد عنه هذه الأفكار السوداء.. لماذا يتصور المصائب؟!.. لماذا لا يعيش الأمل في تحقيق منتهى السعادة.. على الأقل يعيش الأمل في التخلص من معاناة وحدته.. ويترك المستقبل بين يد الله.. أي بين يدي القدر..ثم ما هو المستقبل بالنسبة له.. عام.. عامان.. ثلاثة.. على الأكثر خمسة، فهو لا يمكن أن يعيش بعد سن السبعين حتى لو لم يمت في هذه السن؟!..

ولكن الأفكار والخواطر لا تزال تعصف برأسه..

* * *

وجاءت مشيرة في اليوم التالي..

وتعلقت عيناه بشفتيها وهو يصافحها..تدفعه الشهوة إلى متعة هذه القبلات التي لا تتعدى اللمسات.. ولكنه يقاوم.. يريد أن يكون في كامل قواه وهو يتحدث إليها..وربما لمحت مشيرة مقاومته فبدأت هي الاقتراب بشفتيها من شفتيه..

واستسلم لمتعة اللمسات..

ولم يكن يريد أن يكف عن اللمس إلى أن شدت شفتيها من شفتيه وسحبته إلى الأريكة الواسعة وأجلسته وهي جالسة ملتصقة به.. وقال وأنفاسه متهدجة من متعة اللمسات:

- لقد فكرت..وقررت.. سنتزوج..

وقالت وهي ترفع يده وتقبلها في حنان.. قبلة قد تكون قبلة ابنة ليد أبيها، وقد تكون قبلة عشيقة فاض بها الهوى:

- هذا هو القرار الطبيعي.. أن تجمعنا الحياة في كيان واحد..

وقال كأنه يخطط مشروعه الجديد:

- سأدعو اليوم.. ولديّ.. محمود ومنصور.. وأصارحهما..

وقالت كأنها تصد كارثة تهدد آمالها:

- هذا ما لا داع له.. فزواجنا لا يمكن أن يقرره إلا اثنان.. أنت وأنا.. أما الباقون فهم غرباء ليسوا أكثر من

متفرجين على حادث لن يصيبهم بأكثر من رشاش كرشاش قطرات الماء..

وقال في دهشة:

- ماذا تريدين؟!

قالت وهي تلتصق به أكثر:

- لنتزوج أولا.. وسيعلمون ويثيرون ضجة ثم لا يلبثوا أن يستسلموا لإرادتنا.. حتى أمي لن أصارحها مقدما، وسأتركها تفاجأ.. مفاجأة قد تتأخر في فرحتها بها ولكنها ستفرح!..

ومرت عليه فترة صمت كأنه يفكر، ثم قال وهو يرد قبلتها ليده بقبلة على يدها:

- لك حق.. ولكن متى نتزوج؟

قالت وهي تلقي برأسها على صدره:

- الآن..

ولمس جبينها بقبلة وهو يقول:

- حاضر..الآن..

وقام ونادى بواب العمارة،وطلب منه أن يذهب لاستدعاء مأذون الحي ويعود معه ليكون شاهدا على زواج..

وابتعد بواب العمارة.. واقترب من شفتيها.. اللمسة التي تجمعهما في قبلة..

وطال انتظار المأذون.. وطالت لمساته على كل ما فيها.. حتى بدأ يحس بالشبع.. لم يعد يستطيع أن يستمر في هذه اللمسات.. يريد أن يلتقط

أنفاسه..ويرتاح.. وحتى وشفتاه لا تزالان بين شفتيها بدأت الأفكار السوداء تصحو وتسيطر على فكره.. كيف سيواجه ولديه؟!.. وأي مجتمع سيعيش فيه؟!.. هل سيعيش مع مشيرة في مجتمع الشباب!.. أم سيأخذ مشيرة معه في مجتمع العواجيز؟!.. وكيف ستشبع طبيعتها كامرأة؟!.. قد تخونه.. وهو يخون ذكرى الحب الذي عاش معه حياته كلها.. يخون زوجته وحبيبته نعمت..ولم يبق أمامه إلا سنوات قليلة ليلتقي بها.. وهو حائر.. هل بعد أن يلتقي بنعمت في الحياة الآخرة سيبقى بجانبها في انتظار لقاء مشيرة عندما تصعد إليه؟!.. سيكون خائنا حتى بعد الموت!..

وجاء المأذون.. وفرحت به مشيرة بينما استقبله هو في ذهول كأنه فوجئ به..

وفتح المأذون أوراقه، وقال وهو دهش من حال إبراهيم:

- هل نبدأ؟!

وقال إبراهيم في رجاء:

- انتظر قليلا..

وقالت مشيرة كأنها تلومه:

- لماذا ينتظر؟

وقال وهو يبتسم ابتسامة يغتصبها من دخيلته ويرسمها على شفتيه:

- حتى أستجمع قواي للقاء حياة أخرى..

وساد صمت مريب بين الجميع إلى أن عاد المأذون يقول:

- هل نبدأ؟

وانطلق إبراهيم بصوت مبحوح كأنه ينتحر:

- لن نبدأ.. يبدو أن العريس قد غير رأيه ولن يأتي لعقد الزواج..

وسقطت مشيرة على الأريكة كأنه أغمي عليها.. وقام المأذون منصرفا وهو يلوي شفتيه في قرف كأنه شاهد جريمة مبتذلة.. ولكنه عاد يبتسم عندما مد إليه إبراهيم يده بمبلغ كبير، كأنه يعوضه عما شاهده ويوصيه بالاحتفاظ بالسر!..

وانحنى إبراهيم يلمس مشيرة بشفتيه وهو يهمس:

- إن هذه اللمسات تكفي لتخلصني من وحدتي.. وهي لمسات

لا تشترط ولا تحتاج إلى الزواج!..

ومشيرة لا تزال مغمى عليها!..

الضياع في الصيف والشتاء

كانت حالة إبراهيم محيي الدين ككيان إنساني تتعرض منذ ولد لوضعين متعارضين تعارضا عنيفا خلال كل عام..

فهو في الصيف يعيش كيانا منطلقا بمنتهى الحيوية والنشاط.. إنه لا يجد أفكاره التي تؤكد عبقريته إلا في الصيف.. ولا يستطيع أن يحقق مشروعا يثبت به قوته وقدرته وذكاءه إلا في الصيف.. وأكثر من ذلك.. إنه لا يحس بأي ضيق أو يعاني أي معاناة مهما اشتدت حرارة الصيف.. بل إنه لم يشعر أبدا بقطرات من العرق تنفثها خلاياه خلال الصيف.. ولم يحس أبدا بحاجته إلى مروحة تخفف عنه لسعات الصيف.. وإن كان قد تعود خلال الصيف أن يسرف في الاستحمام تحت الدش.. لا لأنه في حاجة إلى التخفيف عن جسده من حرارة الصيف، ولكن فقط ليحس بمتعة انسكاب المياه على جسده.. وهكذا يعيش كل شهور الصيف في منتهى السعادة مستكملا كل ما يتطلبه كيانه الجسدي من معالم الصحة والعافية..

إلى أن يحل أمر الله بانقضاء شهور الصيف فيحس بكل ما فيه ينقضي مع انقضائها.. يحس بحيويته تخفت.. ونشاطه يتجه إلى التكاسل..حتى إذا بدأت

شهور الشتاء وجد نفسه كأنه إنسان آخر.. إنسان عجوز متهالك يعيش مرتعشا دائما.. ومهما أثقل من الملابس الصوفية الثقيلة التي يلف نفسه بها فهو مستمر في الارتعاش.. إنه لا يرتعش جسديا فحسب بل يرتعش نفسيا أيضا.. وحتى عندما يزاول عمله يجد الحروف والأرقام كأنها ترتعش أمام عينيه.. فلا يستطيع أن يزاول أي عمل.. أو يكون العمل الذي كان يستغرق منه ساعة أصبح يستغرق أياما حتى يستطيع أن يجمع الحروف والأرقام المرتعشة..ويحس كأن عقله قد تجمد في كل شتاء وتجمد معه ذكاؤه الذي يصل في الصيف إلى مستوى العبقرية.. وتجمد عقله يصل إلى إصابته بنوع غريب من الصداع.. إنه صداع ينطلق في رأسه كأنه زئير مجموعة من الحيوانات تقاوم عدوا.. أي تقاوم برد الشتاء..وتفشل كل أنواع الأسبرين والمهدئات والمدفئات في إسكات هذا الزئير.. ويجد نفسه راقدا في فراشه ملتفا بكل ما في البيت من بطاطين وألحفة..أو يقوم بكل هذه الأغطية وينزوي في أضيق مكان من البيت حتى يريح جسده من إمداده فوق الفراش!..

وكل ذلك دون أن يكتشف أي مرض في جسده. لا يشكو شيئا في صدره.. ولا في كبده.. ولا في معدته.. ولا.. ولا.. فقط هذا الصداع الذي يزأر في رأسه..وكان يعرض نفسه كل شتاء على عشرات الأطباء.. بل سافر إلى الخارج ليعرض نفسه على أطباء عالميين.. ولم

يكتشف فيه أي طبيب أي مرض.. وأجمعوا كلهم على أنه مصاب بتلف في الأعصاب يجعلها تضعف خلال الشتاء ولا يستطيع أن يقاوم ضعفها فينهار.. وكلهم لا يحددون له إلا أنواعا من الفيتامينات كأدوية لمقاومة ضعف الأعصاب..

ولا تنقذه الفيتامينات من أي شتاء.. ولا يفيق من معاناته إلا عندما يبدأ الشتاء في الزوال.. ويحس كأنه بدأ يعود إلى منتهى حيويته ونشاطه وانطلاقاته مع الصيف.. وزوجته ثريا تعيش عكس ما يعيشه تماما!..

إنها منذ شهور الشتاء تبدو كأنها استردت كل شبابها.. بل استردت صباها..ويراها في منتهى الحيوية والنشاط، بل والشقاوة كما كان يراها عندما تزوجها وهي في الثامنة عشرة من عمرها.. وهي ليست في حاجة إلى الإثقال من ثيابها لمقاومة برد الشتاء كما يفعل هو.. يكفيها الصوف الخفيف يغطي لحمها..وتنام بجانبه دون أن تحتاج إلى بطانية واحدة وتترك له باقي البطاطين والألحفة ليتغطى بها وحده.. بل إنها خلال نومها قد ترفض البطانية التي تغطي قوامها وتستمر سعيدة بنومها بلا غطاء.. وهي أيضا سيدة عاملة تتولى إدارة بيت كبير من بيوت الأزياء.. ولا تستطيع أن تثبت عبقريتها في عملها إلا خلال الشتاء..

إنها تعمل عشرات الساعات وتحقق ابتكارات وأرباحا مذهلة خلال الشتاء، دون أن يطرأ عليها دقيقة واحدة من التراخي أو الصداع.. إلى أن ينتهي الشتاء ويبدأ

زحف شهور الصيف.. وكأن هذه الشهور تزحف عليها هي شخصيا فيبدأ بها الإحساس بالخمول والكسل.. ثم تبدأ نوبات عصبية تنتابها.. ويأخذ جسدها في الانتفاخ ثم تبدأ معاناة شلالات العرق التي تغرق جسدها كله بما فيه كفاها وقدماها.. حتى أنه كلما يقربها يحس أنه يتزحلق على لوحة لزجة.. إلى أن يعود الشتاء فكأنها تعود إلى صباها وتسترد كل حيويتها وانطلاقاتها.. والأطباء لم يكتشفوا فيها هي الأخرى أي مرض يصيبها خلال الصيف ويجعلها تعاني كل هذه المعاناة.. إنهم يؤكدون أنه مجرد خلل في الأعصاب لا يتحمل حرارة الصيف.. ويزودونها بأنواع من الفيتامينات والمنشطات والمقويات، وإن كانت تختلف عن الأنواع التي يزودون بها زوجها..

وقد اكتشف كل منهما في الآخر هذا التناقض العجيب بعد الزواج!.. إنه لا يحتمل الشتاء وهي لا تحتمل الصيف.. وطبيعة احتمال كل منهما تؤثر في كيانه مما يؤثر في شخصيته التي يتعامل بها مع الآخر.. فهو في الشتاء يتعبها بنقمته على الدنيا ويصب عليها صراخه وعدم رضائه حتى لو جرحها بكلماته.. في حين أنه في الصيف يصبح زوجا في منتهى الحب لزوجته.. رقيقا مهذبا ضاحكا يبدو أنه مستعد لإفناء نفسه في سبيل إسعادها.. وهي في الشتاء تتقبل نقمته وثوراته بابتسامة حانية تنطلق مع منتهى الحب.. وكأن هذه النقمة والثورة زهور ينثرها حولها، ولو أنها زهور أوراقها

كالحة اللون جافة مدببة كأنها مسامير تشق في لحمها.. أما في الصيف.. فهو يتلقى انهيارها كأنه انهيار في حبه.. ويرى الانتفاخ الذي يصيب قوامها الرشيق كأنه تفتح زهرة جميلة.. ويمسح قطرات العرق التي تكسو جسدها كأنها قطرات الندى في فجر مستمر لا يلبث أن يأخذه إلى نهار رائع وليل حالم.. فجر الحب!..

وكان كل منهما يحاول أن يساعد الآخر في مقاومة الحالة التي تنتابه في الصيف أو الشتاء.. كانت تقضي الشتاء وهي تبحث في كل يوم عما يخفف عنه البرد أكثر.. وتقضي كل وجودها معه وهي تضمه إلى جسدها ليستدفئ بها.. أو تدلك له أطرافه وتحركه في تمرينات رياضية تطلق سريان دمه في عروقه.. وهو في الصيف يقضي ساعات في محاولة إضحاكها بآخر الحكايات والنكات.. فالضحك يخفف من الإحساس بلسعات حرارة الصيف.. كما أنهما لم يحسا أبدا بالفارق في طبيعة كل منهما التي تختلف باختلاف طبيعة كل منهما في تحمل الجو بين الصيف والشتاء.. حتى في أدق التفاصيل.. فهو مثلا ينهار أمام البطيخ الذي يظهر في الصيف.. حتى أنه تعود أن يضع أمامه بطيخة كاملة يقسمها إلى نصفين ويغترف كل نصف بالمعلقة حتى يلتهم ما في البطيخة كلها.. أما هي فلا تطيق أكل البطيخ.. وتحس كأنه يسكب في جوفها ماء مغليا لا تحتمله مع ما تعانيه من حرارة الصيف..أما في الشتاء فهي تنهار أمام إغراء حبات البرتقال.. حتى أنها تعودت أن تشتريه بالأقفاص

وتضعه مزدحما على المائدة لتأكل منه خمس أو ست أو عشر برتقالات في الوجبة.. بينما تقضي بقية اليوم في شرب عصير البرتقال..في حين أنه لا يحس بأي ضعف أمام إغراء البرتقال.. وقد يأكل البرتقالة مضطرا تحت إلحاح زوجته حتى يستعين بما فيها من فيتامين «سي» لمقاومة البرد..

ومع مرور الأيام ضاقا بكل ما يبذلانه لمقاومة الصيف والشتاء.. بل لم يعد ما يبذلانه كافيا لتوفير راحتها في الصيف ولا سلامته في الشتاء.. وبدأ تفكيره يتعمق في تفسير وتحليل هذا الخلاف بينه وبين زوجته في تقبل الصيف والشتاء.. إلى أن وصل إلى تشخيص لطبيعة الإنسان اعتبره كأنه اكتشاف علمي هائل.. وأصبح مقتنعا بأن جسد الإنسان لا يستسلم للمؤثرات الخارجية التي تؤثر في قوة احتمال جسده.. فكل مؤثر سواء من تغير حالة الطقس الذي يعيش فيه أو من تسلل الميكروبات والجراثيم إلى داخله، له قوة مقاومة زود بها الله كل جسد.. ولكن الإنسان يخضع لطبيعة تكوين خلايا جسده.. و كل فرد من بني البشر تختلف طبيعة تكوين خلاياه عن أي فرد آخر.. فكما كان من قدرة الله سبحانه وتعالى أن نثر على الأرض هذه الملايين من بني البشر وكل فرد فيها له شكل يختلف عن الآخر.. كذلك خلق بني البشر وكل فرد له طبيعة خاصة في تكوين خلاياه..

فالملايين من البشر الذين يعيشون في القطب الشمالي أو الجنوبي تستطيع طبيعة خلايا كل منهم أن تعيش وسط الثلوج وتتحمل منتهى البرد، دون أن تصاب بأي أزمة جسدية.. والملايين من البشر الذين يعيشون على خط الاستواء يستطيع كل منهم أن يعيش سعيدا في جهنم النار التي تطلقها عليه الشمس ويتحمل منتهى الحر.. إنها طبيعة تكوين خلايا كل جسد.. ولن يستطيع أهل القطب أن يعيشوا على خط الاستواء.. ولن يستطيع أهالي المنطقة الاستوائية أن يعيشوا في منطقة القطب الشمالي أو الجنوبي.. وبين المنطقتين تتفاوت درجات الحرارة وتتفاوت أيضا طبيعة احتمال خلايا كل جسد!..

ومصر تعيش كل ما يسمونه جوا معتدلا.. أي لا تتعرض لمنتهى البرد ولا لمنتهى الحر..إنما هو دائما شتاء معتدل وصيف معتدل.. وهذا هو ما دفع كل أنواع بني البشر مع اختلاف طبيعة تكون الخلايا إلى الزحف على مصر والإقامة فيها.. لذلك فالشعب المصري لا تجمعه وحدة طبيعة الخلية الجسدية.. بل إن الخلايا المصرية تدخلها أنواع مختلفة من الخلايا الأجنبية التي تختلف في قدرتها على تحمل الجو مهما كان معتدلا.. أي يتأثر بعضها بانخفاض درجة الحرارة ويتأثر البعض الآخر بارتفاعها.. وقد يكون تأثرا محتملا وقد يكون تأثرا مضنيا كأنه مرض!..

وهكذا أقنع نفسه بأسباب اختلاف قوة التحمل بينه وبين زوجته.. إنها تقضي الشتاء وهي في منتهى القوة وتنهار في الصيف..وهو يقضي الصيف في منتهى القوة وينهار في الشتاء.. إنه اختلاف في طبيعة تكوين الخلايا الجسدية لكل منهما.. ولكن من أين جاء هذا الاختلاف؟!.. ربما كان لأن أم زوجته هي امرأة من تركيا تحمل خلايا قادرة على الحياة الباردة.. وقد ورثت عن أمها هذه الخلايا.. واستطاعت بها أن تعيش الشتاء في منتهى السعادة.. أما هو فإن جده كان سودانيا.. جاء من السودان وعاش في القاهرة، وخلاياه تستجمع كل قواها في الصيف وتضعف في مواجهة الشتاء..وقد ورث خلاياه عن جده.. وباختلاف الخلايا الموروثة، اختلفت قدرتهما على احتمال الصيف والشتاء وتمزقت حياتهما بينهما!

وقد تطورت محاولاتهما في مقاومة الحالة التي تصيب كلا منهما.. فأصبحت هي كل شهر يوليو تجمع الأولاد وتسافر بهم إلى الإسكندرية لتقيم فيها حتى نهاية شهر سبتمبر.. وهو لا ينتقل معها فهو لا يعاني شيئا من الصيف وعمله يفرض عليه البقاء في القاهرة.. إنما يكتفي بأن يسافر إليها ولأولاده مساء كل يوم خميس، ويبقى معهم حتى مساء الجمعة ويعود إلى القاهرة في الصباح الباكر من يوم السبت.. ولكن حاله يتغير كلما بدأ شهر نوفمبر..فيبدأ الهرب من حلول الشتاء ويترك البيت ويسافر إلى الفيوم.. إن الشتاء

حول بحيرة قارون أرحم في برودته.. وكلما أحس باستجماع بعض قوته عاد ليقضي يوما مع زوجته ومع أولاده ويعود في نفس المساء إلى دفء الفيوم.. أو تجمع هي الأولاد وتسافر بهم إليه في الفيوم خلال أيام إجازتها من عملها.

ثم مع مرور السنوات تطورت الحياة بهما إلى أبعد.. فإنها لم تعد تطيق حتى حرارة الإسكندرية.. وهو لم يعد يطيق حتى برودة الفيوم.. واستطاعت أن تنظم أعمالها في محل الأزياء بحيث تقيم له فرعا في استكهولم.. إنها هناك.. أي في السويد.. لا يمكن أن تحس وتضيق بحرارة.. وأصبحت تتركه وتغيب عنه ثلاثة شهور.. وقد تصحب أولادها معها بعض الوقت أو تتركهم في رعاية أختها التي لا تتأثر خلاياها إلى هذا الحد بحرارة الصيف.. أما هو فقط استطاع أن ينظم ويتسع في أعماله حتى أقام لنفسه مكتبا في مدينة الخرطوم بالسودان.. ولم يكن يمارس عمله في هذا المكتب إلا ابتداء من شهر نوفمبر،

ولا يتركه عائدا إلى القاهرة إلا في شهر مارس.. إنه هناك يعيش الدفء.. ويغيب عن زوجته وأولاده أربعة شهور أخرى.. وهو يحس بمعاناة الغيبة، ولكنها أرحم عليه من معاناة برد الشتاء!..

واستسلامهما لهذه التنقلات التي تفرق بينهما جعلهما كأنهما يعلنان الطلاق بينهما على مدار السنة.. طلاق الصيف وطلاق الشتاء!.. ولكنهما كانا قد وصلا إلى السن

التي يطمئن كل منهما على ارتباط الآخر به حتى في الغربة.. وكانا يعيشان العمر في انتظار اللقاء خلال الربيع.. أي في شهور مارس وأبريل ومايو.. أو في شهور الخريف.. سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر.. فكل منهما يعود إلى الآخر في الربيع والخريف.. وكأنهما في كل مرة يتزوجان من جديد.. والحرمان والشوق الطويل يعيد إلى كل منهما شباب الحب.. إنهما في قمة الحب عندما يعود كل منهما إلى الآخر خصوصا عندما تكون العودة في الخريف.. إن كثيرين لا يعلمون أن خريف مصر أجمل وأروع من ربيعها!..

واستمعت إلى إبراهيم وهو يروي لي حكايته، وقلت له إنه ربما كان من الصحيح أن طبيعة تكوين خلايا الجسد تجعل كل فرد مختلفا مع الآخر في تحمل حرارة الصيف وبرودة الشتاء.. وأنا شخصيا أختلف عن زوجتي في قوة الاحتمال، وإن كان اختلافا عكسيا لما تعانيه.. فأنا أنهار في الصيف وزوجتي تنهار في الشتاء.. ولكننا

لا نهرب من الصيف ولا من الشتاء كما تهرب أنت وزوجتك.. بل نعتمد على الاستعانة بآلة تكييف الهواء.. أي «الايركونديشن».. بعد أن منحنا الله القدرة على شرائها.. وهي فعلا آلة تغنينا وتحيطنا بالقدرة على تحمل منتهى الحر ومنتهى البرد.. إن العالم المتقدم كله يعيش اليوم في حماية مكيفات الهواء..

وقاطعني إبراهيم صارخا: لا.. لا.. إن أي آلة لتكييف الهواء تعتبر كأنها وحش فتاك لا يكاد يصل إلى أجسادنا حتى ينهشها نهشا ويلتهم كل طبيعتها الآدمية.. إني أصاب بحالة تفتيت لكل خلاياي كلما عرضت نفسي لهذه الآلة.. وتنتابني حالات أخطر من الحالات التي تصيبني من قسوة البرد.. ولا ألجأ إلّا إلى الاستعانة بالمدافئ العادية التي تنطلق بالنار.. وكذلك زوجتي.. إنها لا تحتمل آلة التكييف في الصيف.. وغاية ما تحتمله هي الاستغاثة بالمراوح اليدوية التي تهز الهواء من حولها.. مجرد هزات بريئة..

وأي آلة تسلط على جسد الإنسان.. أو حتى افتعال أدوية كيماوية يُعتدى بها على الجسد لمقاومة الطبيعة البشرية لا لمقاومة اعتداء خارجي على هذه الطبيعة.. أي مقاومة اعتداء جرثومة أو ميكروب دخيل.. هذه الآلات والأدوية تخرج الفرد عن طبيعته الإنسانية، وتحيله إلى مجرد حيوان خاضع للسوط الذي يشهره السيد في وجهه.. وآلات تكييف الهواء تعتبر كأنها في مستوى الحبوب المخصصة للتقوية الجسدية للإنسان. إنك لو جربت هذه الحبوب لما أحسست بالمتعة الطبيعية التي يزود بها الله جسد الإنسان.. ولكنك تحس بأنك مجرد حيوان تزاول حيوانيتك دون أن تصل إلى المتعة الإنسانية.. وكذلك آلات تكيف الهواء فإني أحس كلما تسلطت عليّ أني مجرد حيوان يخضع لإرادة السيد.. وأفتقد كل متعتي وزهوي بإنسانيتي..

إنك لكي تعيش متعة إنسانيتك، فيجب أن تعيش الطبيعة التي أحاطك بها الله.. ولا تخرج عنها مهما عانيت من أمراض.. فإن الطبيعة نفسها تحمل العلاج لكل مرض.. وهكذا كان يعيش الإنسان في أيامه الأولى إلى أن بدأ يستسلم لتطورات ومبتكرات علم الطب.. وهو علم يعتبر الإنسان مجرد حيوان.. ويسلط عليه الأدوية والآلات المعالجة التي تفقده شخصيته كإنسان وتعامله معاملة الحيوان!..

وابتعد عني إبراهيم فورا كأنه لا يطيق مناقشة الجهلة من أمثالي!

* * *